تأمّلاتي

نَظَر في اللّغة و الوجود

عبد الحفيظ الزّواري

تـــأمّـــلاتي

نَظَرٌ في

اللّغة و الوجود

✍ بقلم: عبد الحفيظ الزواري

مقـــــدّمة

هي ارتسامات جالت بخاطري في لحظات شتّى من وجودي. اقتطعتها من أزمنة مضت وعشتها بكلّ كياني منذ حقب خلت.

تراءت لي اللّغة سحرا عجيبا ملأ قلبي وفاض أريجه في لبّي. اللّغة هي الفضاء العظيم يخترق الوجود في تجلّياته وإنكساراته وتقلّباته.

حقّا لقد كانت هذه الإرتسامات لحظة من لحظات كياني رَاودت فِيَّ الخيال ولامست فِيَّ سبل العرفان.

وقد كانت إرتساماتي رحلة من تأمل في اللّغة إلى تذوق ينابيعها ومباهجها والإصغاء إلى الإيقاع نغمة تصدح بها. ذلك أنّ اللغة الفنية عالم له أسراره وخفاياه.

فإن رمت اكتشاف مجالها كان لزاما عليك أن تفقه حضورها في صفحات الوجود.

الوجود في نظري لغة يرسمها الإنسان ويسطرها بعقله ويفهمها بمحض خياله. لذلك كانت رحلتي في الوجود على ضآلتها باحثة مستجلية تحاول الوقوف على بعض الحقائق وإن بمقدار.

تلك هي ارتساماتي، تأمّلات ما كانت لتكون لولا التّجربة والمجتمع. فإلى روح والدي أهدي هذا المؤلف. وإلى كلّ من علّمني حرفا أو أسدى إليّ نصحا أصوغ هذا الكلام.

وإليك أنتِ رفيقة دربي وموطن سرّي وقرّة عيني أهديك عصارة قلبي وثروة فكري أملا متجددا وإشراقا مستديما.

والله وليّ التوفيق.

الإمضاء
عبد الحفيظ الزواري
1996

القســم

الأول

فــي اللّغــة

من وهم اللّغة إلى لغة الوهم
تأمّل في حقيقة اللّغة الشّعرية

وهم اللغة يلتصق بالكلام فيبثه طاقة إيحائية في التّعبير تتجاوز المعنى إلى معنى المعنى.(1) وتنفلت اللغة من عالم الواقع إلى عوالم الخيال وتنبعث منها ملكة التّخييل لتُصيّر الكلام متعدّد المعنى، رحب الدلالة. ومن الوهم يتولد الإنشاء.ومن رحم اللّغة يفيض الخيال.وهذه الملكة تفعل في الذات فعلها في العقل.إذ الإنسان عالم من الخيال يولِّد من فكره طاقة في التّصوير وعظمة في التّعبير وجودة في الصّياغة.ويغدو هذا الكائن العجيب قادرا على التّوهم فالإيهام.

وذلك هو عنوان تفرّده وتميّزه عن المخلوقات.

وباللّغة صار الإنسان إنسانا.ومن الوهم صنع الإنسان خيالا يتحاور به الشّعراء فيتبادلون أنغام الإحساس ويتجاذبون أصداء العوالم الخفية أو الميتافيزيقية. تلك العوالم لصيقة بالوجود الإنسانيّ، لا مفرّ له منها.

فلا يذهبنّ بنا الظنّ إلى أنّ السؤال الميتافيزيقي خالٍ من الدّلالة ، عديم المعنى، إن هو إلاّ أفق من آفاق العقل يخترقه ويستحثه للإجابة عن أسئلة الذات وهي إلى الجواب ظمأى. فقد يستجيب عالم الطبيعة المرئيّ إلى عقل الإنسان الباحث عن حقيقة الأشياء. بيد أنّ هذا العقل يطمح كذلك إلى ما هو خفيّ ومحجوب عن عالم الشهادة. إذ في ذلك رغبة ملحة تدعو الإنسان إلى تجاوز حدوده لينتقل إلى اللامرئيّ. وعندئذ يقف العقل ليتحرك الوهم. فتفيض من الإنسان مشاعر الخيال لتزيّن الوجود وتتجاوزه إلى عوالم أخرى هي من صنع الإنسان ومن تجريد الفكر ومن صياغة العقل. يقول الباحث CORNELUIS CASTORIADIS: "ثم إنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذّي استطاع أن يحكم هذا العالم من الدلالات و المفاهيم في كيانه حتّى أنّ كلّ الشّرائع وكلّ القوانين تبدو راجعة إلى المتخيل في عالم المفهومات"(2).

ويضيف قائلا في كتابه: "اكتشاف المتخيل".

"إنّ قصارى ما يمكن أن نقوله لمبدع الكلام المخيل أنك اختلقت وابتدعت وتزيّدت وتوهّمت وهي ألفاظ تختلف عن الكذب الصّريح كلّ الإختلاف". (3) وتغدو الأنا البشرية توّاقة إلى رمزية الكون العجيب وإلى صياغة لغة يتحاور بها الإنسان مع ذاته العميقة. ليبدو خطاب الخيال، وتتقلص فيه أوهام اللّغة لتمتد لغة الأوهام.

والوهم سلاح المتوهمين وقبلة الفنانين. إليه يشدون الرّحال و منه يستلهمون الأحلام و به يصنعون العقول و يخترقون الأفهام و الأسماع لتصبح اللّغة عندهم فسيحة لا يحدها حدّ و لا يقيّدها قيد. فأعزز به من فعل يغدو الإنسان به صانعا لِلمعنى مفتّقا لقيود اللّغة مخترقا عوالمها الدّنيوية، ملامسا فيوضاتها الأزلية، معبّرا عن بداياتها السّرمديّة.

ومن زمن اللّغة الأول وبدايتها يتولد الوهم و الخيال عند الشّعراء. ذلك أنّ الكلمة الشّعرية شكل من أشكال التّعبير تلامس الوجدان في لحظة الانفعال. وتنفعل بلحن الذّات وهي تتغنى بأهازيج الكون. وتترنّم سكرى بألحان

الوجود. فكلّما سمعت الشاعرِ الفنّان ينشد أنغامِ الكلام انتابتني حمّى التّأوه. إذ تنبعث من روحه أوهام الكلمات و تنفعل نفسه بأريج العبارات وتنجذب أحاسيسه فيكتب قصيدته من فيض العبرات. وتنهمر دموعه لتغطي بياض الصّفحات. فتخال الكتابة تتبرج في جمال أسلوبها قويّة صلدة منيعة. وما إن يغدو القارئ متتبعا أنغامها، مسايرا همسها حتّى تقع في نفسه فتهزّ من وجدانه وتسكر مشاعره ألحان الخلود.

طريفة هي العلاقة بين المبدع ينحت الشعور فيولد من اللّغة أوهاما. و يهذّب العبارة فيصيّرها بعد الخلق أجراسا. و بين القارئ يتذوق نشوة الكلام فيرحل بنفسه إلى عوالم الخيال يرفل في دنيا الجمال توّاقا بروحه إلى الكمال.

فأنظر إلى الشاعر – ابن الفارض- كيف صنع من اللّغة أوهاما. فبثّ فيها جمالا وحيّر بها أفهاما. ألم يقل متغنيا بالخمرة الأزلية التي تفيض من عوالم سرمدية

لتخترق الحدود الأرضية و ترتقي بمفاتنها إلى الحضيرة القدسيّة.

شربنا على ذكــر الحبيب مدامـــــة

سكرنـــــــا بها من قبل أن يخلق الكـــــرم

و قالوا شربت الإثــم كــلا و إنّمــــا

شربت التي فــي تركهــا عندي الإثــم

هنيئا لأهــل الدّير كم سكــروا بهــا

و ما شربـــــوا منهــا و لكنهم همــوا

فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحيــا

و من لم يمت سكرا بها فاته الحزم (4)

لقد غدت الخمرة عشيقة الشّاعر الصّوفي يتواجد معها في لحظة الانفعال.ويبثّها مشاعره الصّادقة فيسعد بلذتها الصّافية و قد سما بها من عالم الدنس إلى آفاق المقدّس. فيصيّرها قبلة العشاق و روضة المشتاق.بلغت بمحاسنها البقاع و شنّفت بأخبارها الأسماع.

و أسمعه يتغنّى بعاطفة الحبّ في لحن فريد يرتقي به من جديد إلى فضاء المقدّس وينتشله من براثن الابتذال. إذ ليس الحبّ في نظره حسيّا ماديّا بل هو نغمة الرّوح بها تتجدّد. فتعانق العوالم و ترحل في بهجة لملاقاة الحبيب. تتشوق نفس الشّاعر إلى مشاهدة الذّات الإلهية و قد غدت نار الوصال تضطرم :

زدني بفرط الحبّ فيك تحيّرا

و ارحم حشى بلظى هواك تسعّرا

و إذا سألتك أن أراك حقيقة

فاسمع و لا تجعل جوابي لن ترى

إنّ الغرام هو الحياة فمت به

صبّا فحقك أن تموت و تعذرا

و لقد خلوتُ مع الحبيب و بيننا

سرّ أرقّ من النّسيم إذا سرى

فدهشت بين جماله و جلاله

وغدا لسان الحال عنّي مخبرا

فأدر لحاظك في محاسن وجهه

تلقـى جميع الحسن فيه مصـــــوّرا

لو أنّ كلّ الحسن يكمل صورة

ورآه كـان مهلّـــــلا و مكبّـرا (5)

بل إنّ الشّاعر ليصوغ حبّه من جديد بعد نسخ عشقه كلّ من سبقه ليقدّم إلينا عشقه هو في صيغة إطلاق و مبالغة تذهب بالمألوف دونما رجعة لتخلق عند المتقبّل معنى يافعا جديدا ينبع من تجربة العاشق إمام الهوى و قد تسلّح بالحبّ متحدّيا الكلّ دون استثناء في نغمة لطيفة عذبة تلج الآذان دونما استئذان. و تغدو كالمسك كلّما حرّكته ازداد طيبا.

نسخت بحبّي آية العشق من قبلـــي

فأهل الهوى جندي و حكمي على الكلّ

و كلّ فتـــى يهـــوى فإنّي إمامـــه

و إنّي بريء من فتـــى سامـــع العـــذل

و لي في الهوى علم تجلّ صفاته

و من لـــم يفقهـــه الهوى فهو في جهــل

و من لم يكن في عزّة الحبّ تائها

بحبّ الــذي يهــوى فبشّره بالـــــذلّ

إذا جــاد أقــوام بمال رأيتهــم

يجــودون بالأرواح منهم بــلا بخـــل

و إن أودعوا سرّا رأيت صدورهم

قبـــورا لأســـرار تنزّه عن نقـــل

و إن هدّدوا بالهجر ماتوا مخافة

و إن أوعدوا بالقتل حنّــوا إلى القتـــل

لعمري هم العشاق عندي حقيقة

على الجدّ و الباقون منهم على الهــزل.(6)

هكذا يغدو جوهر الكلام الشّعريّ نابعا من لغة الوهم و خالقا بالوهم فيضا من المشاعر تتدفّق لتخلق نمطا جديدا

من الدّلالة و أفقا في العبارة تعبر الأسماء إلى زمن البداية الأولى للأسماء. و هكذا تحدّث – حسين الواد – عن زمن الشّعر وبدايته الأولى.و هكذا تتحدّد هويّة الفعل الشّعري من داخله دونما حاجة إلى تفسيره من خارج سلطة الكلام.

يقول:« إنّ عهد التّسميات الأول عهد شعريّ بالأساس... فالشّاعر مسكون بالتّسمية هاجسه المقيم تفكير دائم في الكائنات و الكلمات و كلّما فكّر في التّسمية ضرب رجعا إلى المجسّمات و الصّفات» . (7)

و يقول: « وجوهر الشّعر شأنه شأن جميع الجواهر يفيض على حدود الزّمان والمكان ليغترف من الأزل منسحبا على الأبد السّرمد». (8)

إحـــــــالات:

1) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجّرجاني

تحقيق: محمد رضوان الدّاية / فايز الدّاية

مكتبة سعد الدين الطبعة الثانية 1987

فصل: في المعنى و في معنى المعنى ص 258-259

« و إذ قد عرفت هذه الجملة ههنا عبارة مختصرة و هي أن تقول المعنى و معنى المعنى، تعني المفهوم من ظاهرة اللفظ و الذي تصل إليه بغير واسطة و بمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثمّ يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسّرته لك»

و يقول ص. 261:

و إذا كان كذلك علم علم الضّرورة أنّ مصرف ذلك إلى دلالات المعاني على المعاني وأنهم أرادوا أن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلا على المعنى الثاني ووسيطا بينك و بينه متمكّنا من دلالته مستقلا بوساطته. يسفر بينك و بينه أحسن سفارة. و يشير لك إليه أبين إشارة حتّى يخيّل إليك أنّك فهمته من حاقّ اللفظ و ذلك لقلّة الكلفة فيه عليك.

2) انظر – الواد حسين – المتنبّي و التجربة الجماليُة عند العرب.المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر– الطبعة الأولى 1991 ص. 345.

3) انظر – الواد حسين – المتنبّي و التجربة الجماليُة عند العرب.المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر– الطبعة الأولى 1991 ص. 346.

4) انظر ديوان ابن الفارض– دار صادر د ت.
عنوان القصيدة: شربنا على ذكر الحبيب ص .140

5) انظر ديوان ابن الفارض– دار صادر د ت.
عنوان القصيدة: زدني بفرط الحبّ ص .169

6) انظر ديوان ابن الفارض– دار صادر د ت.

عنوان القصيدة: نسخت بحبّي ص .174

7) انظر – تدور على غير أسمائها – حسين الواد.

دار الجنوب للنشّر– تونس 1993 ص 76.

8) انظر– تدور على غير أسمائها – حسين الواد.

دار الجنوب للنّشر– تونس 1993 ص. 83.

مقال: أحرز على الجائزة الأولى في النقد: ملتقى الأدباء الشبان بسيدي علوان جويلية 1997

صلوات في محراب اللّغة

لذيذة هي لحظة الانتشاء في اللّغة. عندما يستلقي العاشق بين أحضان اللغة يستشعر عمق الحضور و قداسة اللحظة. هي لحظة ولادة بعد موات، تتنسّم من خلالها رحيق المحبّة وسلسبيل الحياة.

إنّني أسبح في بحر اللغة دون ملل. فتجدني هائما في حسنه و دلاله مترشّفا عذوبة طعمه. و أنعم به من طعم.

و أيم الله إنّه رضاب العبارة نترشّفه فإذا النّفس تنساب في بحر اللّغة. و إذا الرّوح ترفل في ثوب اللّذة سافرة عارية لم تتبرقع.

ليست النّشوة في القراءة لحظة عابرة إنّما هي فعل مستمرّ في الكيان يخترقه. و لن تعرف فعل النّشوة إلاّ إذا عانيت وجود الكلمة و فهمت سرّ الفناء في اللّغة. ما كانت اللّغة قوالب جاهزة و لا تراكيب مبتذلة إن هي إلاّ شوق و ذوق فنشوة فانتشاء. و فعل النّشوة و إن اقترن بالخمرة فهو في اللّغة أعمق و أجلّ.

إذ الكلمة تفعل فعلها في النّفس فتثير الشّهوة و تستهوي الإحساس.فلا مناص من تذوّق حلاوة الشّراب: هو شراب اللّغة المختوم يسقاه من هو في حبّ اللغة متيّم. وباللّغة صار الإنسان إنسانا.كيف لا و سحر الكلام يخلب الكيان و يسحر الألباب.أم كيف لا و اللّغة في صميم الوجدان ضاربة.

أليس الشّعر فعل اللّغة في النّفس فتهتزّ له و تطرب. الشّعر شعور. و اللّغة تفعل فعلها في الشّعور فتلتهبه فإذا هي جهنّم العبارة تحرق القلب و توقد البنان. نور العبارة نار و النّار نور. نور العبارة هل يفيك بياني وصفا؟ هل يقوى عليك بناني؟ كيف أستطيع التّعبير و النّار تلتهب في أحشائي؟. نار الكلمة إذا التهبت أفنت.و فنائي في اللّغة عجيب غريب.فقد عشقتها وخطبت ودّها. و كان مهرها الفناء في عوالمها.كيف لا و الذات المبدعة ترى اللّغة في الحلم تداعب و تدغدغ فتريق و تؤرّق.

ناهيك أنّ الكلمة النّابعة من الوجدان لا تنفذ إلاّ في صميم الأعماق. باللّغة تعيش عمق التّجربة البشرية كما

عاشها عمر بن الخطّاب و عمر بن أبي ربيعة. هذان عمران قد تشابها في الأسماء و اختلفا في العبارة.فكانت لغة عمر بن أبي ربيعة تأسر السّامع.أما شعره فيغشى كيان المرأة لتصبح توّاقة إلى الوصال. و لو كان ذلك في حرم مقدّس.

إنّ عمر بن أبي ربيعة كان يصلّي في محراب اللّغة. و كانت المرأة تجني فعل الصّلاة.فتتساب معها بكلّ كيانها. فإذا هي تعشقه من خلال اللّغة.بل قل إنّها تعشق اللّغة و قد أفناها عمر بعد مراودة و جهد كبيرين.فصيّر نطقها خلقا سويّا. أليست اللّغة إذن جديرة بالتّقديس كما الإله جدير بالصّلاة.

وَ شتّان بين لغة تتضح إيحاء و دلالة و تنبع من نفس توّاقة ذوّاقة و بين لغة لا تحرّك الذّات و لا تدفعها. اللّغة دفق العاطفة يسري.و شراب الخمرة ينعش.هي نسيم الوصل يهبّ على النّدامى فيسكرهم و ما شربوا المدامة. هي هذا و ليس هذا بل هي في عمقها مضاجعة بالجسد

ومعانقة بالقبل و مداعبة بالبنان. هي كلّ هذا فضلا عن قداستها في لحظة التجلّي والخفاء.

هي لذّة النّشوة عبر اللّغة. بل هي الصّلاة في محراب اللّغة. و لم لا ما دامت لحظة النّشوة ترقّيك. فأرق معي إلى معراج اللّغة عساك تصيب خصلك فتكون ممّن يعشقون فيحبّون فيموتون شهداء الكلمة. لغتي سأكتب فوق شفاهك أسمي نشيدا أخطّه بالقبل. لغتي عذبة أنت في فمي. عذبة أنت في مهجتي. عذبة أنت في مقلتي. فيك ألف جزيرة حسن و ألف أعدّ بلا تعب. أنت كلّ حياتي. أنت وجد يرفّ على البدن. لا بل أنت سحر يحطم كلّ كياني فيعصرني كالقضاء النّازل. أنت روح في العلا و دموع لا تذوق الوسنا فإذا ما شئت مدحا ثمنا. فمن تراني أكون أنا؟.

القراءة مضاجعة أو لا تكون

مـــا المضاجعة؟

هي التّواصل الجنسيّ مع النصّ. أن نتواصل جنسيّا مع النصّ هو أن تعانقه وجدانيًا بحيث يستحيل النصّ جسدا و الجسد نصّا. و لا تكون المضاجعة ناجحة إلاّ إذا سبقها فعل المراودة و التذلل كما يتذلل العاشق الولهان أمام جسد الحبيبة بغية اقتناصه. فعندئذ تشعر بلذّة الوصال. و تعي أنّ فعل القراءة هو استجابة رئيسيّة لمنطق اللّذة القابع في اللاشعور. القراءة لذّة تستشعرها في الأعماق. و يكون فعلك معها فعلا جنسيّا بلا مرية. و لعمري إنّ فعل اللّذة لا يتحقق إلاّ بالمعاناة. فلا يعرف الشّوق إلاّ المشتاق. و لا يفهم الصّبابة إلاّ من هو فيها يتحرّق. فأقنَ أيّها القارئ في جسد النّصّ. و هِم في بحره اللّذيذ. و ترشّف عمق حلاوته عساك تشتعل كما المحبّ في ساحة الحبّ يتضوّر عشقا و هياما. إذ القراءة هي ذلك الفعل الذّي يتعرّى أمام القارئ عبر المراس. فتكون الكتابة نشيدا يخطّه الكاتب بالقبل. و القراءة

لن تكون إلاّ بقتل عدوّ اللذّة الرّافض للوصال.فما ضرّ لو إنسابت اللذة في قراءتك انسيابا.و قد خبرت من المراودة أفانين.و مّا ضَرّ لو تركت الذّات تتحرّك في محراب اللذّة وَ هي إليه ظمأى.

المغتسلة

" نصّ لأبي نوّاس يتولّد منه الجمال بالكلام.و يزول به الظلام ليشرق الضيّاء.و يتحقق به الإلهام بعد الجفاف. فهو من الكلام الرّاقي يقرأ فلا يشرح.إذ هو فوق الشّرح جمالا و روعة.و لحقّنا أن ننشده فنحفظه.فنرتّله غذاء للرّوح و بلسما للنّفس.

النـــــصّ:

نضت عنهـــا القميـــص لصـــبّ ماء

فورّد وجهها فرط الحيــــاء

و قابلت الهواء و قد تعـــــرّت

بمعـــتدل أرقّ من الهـــــــواء

و مدّت راحـــة كالمــــاء منهـــا

إلى مـــاء معــــــدّ في إنــــاء

فلما أن قضت وطـــرا و همت

على عجل إلى أخذ الـــــــرّداء

رأت شخص الرّقيب على التّداني

فأسبلت الظّلام علـــى الضّيـاء

فغاب الصّبح منهـا تحت ليــل

و ظلّ الماء يقطر فــوق مــاء

فسبحان الإله و قد بــــــراها

كأحسن ما يكــون من النّســاء

" من سحر الكلمة يتولّد الإنشاء"

– لكنّ: " الكلام على الكلام صعب" . التّوحيدي

خرجت كدأبها فأتّجهت صوب النّهر. و كان المكان مقفرا من المارّة، خاليا من الحركة، مستسلما إلى السّكون. و ظلّت ترقب ظلّها و تتسلل إلى نفسها تناجيها وهي تسّاءل عن روحها و قد اختفت في قرار الجسد.

ترى هل تمضي نحو مكانها المحبوب حيث الماء يتدفّق سيلانا و الهواء يسري في الأرجاء غضّا نقيّا.فينعش

بأريجه برد القلوب. أم تنقلب إلى خدرها خشية عين الرّقيب تلحظ جمالها. فتقع في حبّها و ينكشف طهرها.

و راودها السّؤال تلو السّؤال. و عنّفها الضّمير تارة و دفعها طورا. و لكم عقلها عقلها فكبح من جماحها. بيد أنّ عاطفتها همست فيها همسا خفيفا. و داعبتها مداعبة لطيفة. فأستدرجتها نحو النّهر و النّهار مشرق وضّاء كالجوهرة الثّمينة.

و مضت في سبيلها و الفرح يحدوها و السّعادة تغمرها و دفء الطّبيعة يناديها أن أقبلي فلا تتردّدي. وكوني فلا تنتفي و صيري قبل أن تنقضي. فاللّذة قصير مداها، عذب لقياها، صعب طريقها، جمّ فوائدها إذ لا حصر لكنهها و لا حدّ لبعدها.

أقبلي فلا لوم على العاشق للجمال يتصيّده. و لا تثريب على الجمال يعانق الجمال و يستلهم منه راحة وَريحانا. و مضت إلى أن وصلت و عند ذاك وقفت فأنتصبت و قابلت النّهر فشهدت حركته الهادئة و رأت

أشعة الشّمس تنعكس على الماء فتولّد سحرا بالألوان. و أحسّت رائحة تنبعث من أعماقه تفوح طيبا كطيب الياسمين. و شعرت بإرتعاشة في جسدها الرّقيق الأبيض فكأنّما الرّوح منها تحرّكت. فأهتاجت فأضطرمت و قال لاعجها للجسد انكشف، واخلع عذارك و عانق حبيبك، وهم في بحره تنعم بلذيذ وصاله.

و بادرت إلى الثّوب تقتلعه و إلى الجسد تكشفه و إلى الظلام تزيحه و إلى المجتمع تتحدّاه. و انتصبت أمام الماء عارية بجسدها و أضحت مفاتنها في مقابلة مع الطبيعة وجها لوجه. وهي تتحدّى بإشراقها و تغطّي الكون بسحرها. فأعظم بها من جرأة تعمّق قداسة الذّات و هي تصارع الكون العجيب فتتحدّاه راقصة لاهية، متحرّرة.

و استغرقت في حلمها اللّذيذ منتشية. و شعرت بسعادة عارمة تملأ كيانها. وامتدّ الزّمن فترة. وفجأة أحسّت بحركة مريبة. فأنتفضت مسرعة من مكانها عندما أطلّ عليها شبح في صورة آدميّ. إذ وقف مشدودا لجمالها منبهرا بحسنها متلذّذا بعرائها. و هل يستطيع حراكا بعد

ذلك؟ فالجسد نار تشتعل و نور يتلألأ. وقف فآرتعدت، و نظر فخشيت، و تملّى جسدها فأسرعت إلى الحجاب تتعوّذ به. و أسبلت على جسدها قناعا ففرّقت به الضياء عن الظلام. و أمام العين النّاظرة وقفت المغتسلة في دهشة و حذر عساها تنجو من سهام النّظر و قد رشق جسدها الغضّ النّاعم.

و هتف هاتف:

هيهات فقد انكشف الجمال للرقيب. فعرف سحره و أيقن تأثيره. بل وقف أمام الجسد يصلّي في محرابه مرتّلا أنغاما عذابا فكأنّه في محفل. و عادت المغتسلة بعد أن حجبت جمالها الفنّان تجرّ أذيال الخوف. و إنتابها شعور عجيب لأنقضاء اللّذة سريعا. و هالها ما حدث. لكنّها عزمت على الصّمود. فقرّرت تجربة اللّذة ثانية. فلِم تحرم المشتاق ما دامت تملك سلطان الجمال. و ما دام جمالها مقدّسا صنعته يد الباري فلم الخوف و التّجافي؟

و ردّد الشاعر آية جمالها قائلا:

إنّ في جمالها عظِمة للخالق و تقديسا للقدرة على جليل الصّنع و بديع الخلق و جميل التّصوير.فسبحان الإله صاغ المرأة من رحم الجمال فلا يفنى.و قدّها من بهاء الكَمال فلاَ يبلى.و جعل لها الكون عطرا.و أَنشأ منها للناظرين سِحرا، فصارت حينها أجلّ أمرا لا بل أكرم ذِكرا.

الموسيقى

ليست الموسيقى سوى نغم بديع و إيقاع جميل لذيذ يسري في المهج منذ سالف الحقب.

هي لحن قوامه النّغم يلج الأذن دونما استئذان.و هي كالمسك كلّما حركته ازداد طيبا. إنّها تفتح القلوب المغلقة و تنمّي الإحساس المرهف و تصقل العبقرية الكامنة في روح الفرد. إنّ الموسيقى تحف بأجنحتها الفنية كل المخلوقات. إنها تسمو بهم إلى أعلى المراتب ، و ترتقي بهم إلى مصافّ الذات البديعة.فيغدو الأعشى مبصرا و يصير الأصم مدركا.و تصبح الأذن عاشقة.و الأذن تعشق قبل العين أحيانا على حدّ تعبير بشّار بن برد.(1) و أمّا العبارة الموسيقية فهي لطيفة الواقع بديعة المخرج، رقيقة الملمس عذبة المسرب.و حينما نصغي إليها فإنّنا في نهاية الأمر نصغي إلى شيء ينطلق من بداية إلى نهاية. و يتطوّر خلال الزّمن على حدّ تعبير كلود لفي ستراوس في كتابه " الأسطورة و المعنى ".(2) إنّ الموسيقى لغة

النّفوس بها تتحاور و دفق العاطفة منها تحسّ و تشعر. إنّها تحدث في النّفس صنوف المشاعر. وتؤجج في العواطف مختلف الحالات.فقد جاء في كتاب " ثمرات الأوراق" لأبن حجّة الحمويّ قوله :" ورد أبو نصر الفارابي على سيف الدّولة بن حمدان.فأخذ يتكلّم مع العلماء و الحاضرين في كلّ فنّ.فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتّى صمت الكلّ و بقي يتكلم وحده.ثم أخذوا يكتبون ما يقوله. فصرفهم سيف الدولة و خلا به و قال : هل لك في أن تأكل؟ قال فأمر سيف الدولة بإحضار القيان فحضر كلّ ماهر في الصّنعة بأنواع الملاهي. فخطأ .الجميع فقال سيف الدولة: هل تحسن هذه الصّنعة؟ قال: نعم ثمّ أُخرج من وسطه خريطة ففتحها.فأخرج منها عيدانا و ركّبها. ثمّ لعب بها. فضحك كلّ من في المجلس.ثم فكّها و ركبها تركيبا آخر فبكى كلّ من في المجلس.ثمّ فكّها.و غيّر تركيبها و حرّكها فنام كلّ من في المجلس حتّى البوّاب.فتركهم نياما و خرج (3).لقد غيّرت الموسيقى أحوال الحاضرين بتغيّر طبيعة اللّحن.فلعمري إنّها سحر يشع عبر الكون.بل سراج ينير

نور العقول و معبر إلى القلوب تبثّها خفقانا و تطربها فتهتزّ وتنفعل.

لذيذة هي عبارة الفنان أو الموسيقيّ و رائعة أنغام "بيتهوفن".ذلك الفنّان الذّي ولع بجمال الطبيعة.و أنفق في الأرياف عطله و في جيبه دفتر يسجل فيه ما يدور في رأسه من خواطر.(4) و كم هو جميل أن تنصت إلى أنغام العُود و رَنّة الوتر تهمس في قلبك همسا عجيبا.و تزرع فيك أملا مشرقا.فتنعش فؤادك لذّة لا توصف.ألم يقل مصطفى خريف واصفا المغنية:

العُود بين يديك فـــنّ ينطـــق

فيه الحيـــاة غزيرة تتدفـق

من حوله أنس الوجود الرّحب في

نبرات صوتك هائم مستغرق.(5)

و أجمل من هذا الوصف أن تنصت إلى القصائد تغنّى في لحن هزج وصوت شجيّ.فإذا الكلام الفنيّ يرتقي

جودة.و إذا العبارة الشعرية تغازل الوجدان فتبثه نشوة. و تسمو به نحو الخيال المتدفق.فمن سحر الكلمة يتولد الإنشاء و من النغمة الموسيقية يتألق البيان.ناهيك أنّ الكلمة النابعة من الوجدان لا تنفذ إلاّ في صميم الأعماق.

إنّ الموسيقى فنّ يهذب الذوق.بل يثقف السلوك المعوّج.فإذا كانت كلّ الكائنات تطرب للنغم و إذا كانت الحيتان و الدّواب و الطيور بل الوحوش هذا شأنها تجاه الموسيقى و الأغاني فلا ريب أنّ حال الإنسان تجاهها أرقى و أكمل على حدّ تعبير الصّادق الرزقي (6). إنّ الإنسان ليتعلّم بالنّغم فيلين سلوكه.و تنمو قريحته و تجيش عواطفه لتؤسس كيانا جديدا فسلوكا متجدّدا بل متحضّرا. فما من أحد تربّى في أحضان الموسيقى إلاّ و نشأ فنانا متميّزا و حاذقا فطنا.فالموسيقى تؤثّر في سلوك العامل عندما يتقن صناعته و يحرص على جودتها.بل إنّها تخلق فيه لذّة فيميّز بين الأصيل و الزائف.فإذ العامل يخرج عمله في أجود الصّور و أبهى الحلل.و هكذا تتربّى النفوس

و يزداد عطاؤها و يكثر نماؤها بفضل ما ترسخ في النفس من ذوق و إحساس و عزيمة خلاّقة.

إنّ الموسيقى سبيل قويم لنشأة الإنسان النافع و البليغ الماهر و المجيد البارع.

الإحـــــــــــالات

1) بشار بن برد: الدّيوان

2) كلود لفي شتراوس " الأسطورة و المعنى .

ترجمة صبحي حديدي – دار الحوار

الفصل الخامس: الأسطورة و الموسيقى ص 45

3) ابن حجّة الحموي: ثمرات الأوراق ج1 ص 99

4) انظر: سلسلة كبار الموسيقيين

5) مصطفى خريّف: شوق و ذوق ص 209-212

الشركة التونسية لفنون الرسم 1965

6) الصّادق الرّزقي: الأغاني التونسية ص 17

الدار التونسية للنشر 1967

قراءة في صورة غلاف رواية الشحاذ
ما بين الصّورة و الكلمة

نجيب محفوظ

دار القلم بيروت لبنان

الطبعة الثانية

أنّى يممت بنظرك شطر مشهد صورة الغلاف رأيت الجسد في لحظة الاستغراق منتشيا.و انتابتك قشعريرة بل رعدة.

من فيض آهات العناق تأجّجت المشاعر و تلظت الخواطر. و من همس تراتيل الشفاه نطقت أصوات العشق في ترنيمة البلبل الغرّيد أو الطائر يرقص في أصفاده الذّهبية.

" و رمق بحبّ استطلاع عنقها الطويل بعقد لؤلؤي بسيط و أعلى صدرها المنبسط في رحابة و نضارة الجنس التي تتضح بها شفتاها الممتلئتان. و النظرة السائلة من عينيها فنبض وجدانه بشوق غريب غير محدود... و ودّ

أنْ يخاطب الأعماق و أنْ تخاطبه الأعماق بلا وسائط.و أن يجد إن خانته النّشوة المنشودة بديلا في لذعة الجنس السّحرية الذروة المتفجرة التي تمتص رحيق الحياة و أحلامها في رشفة واحدة زائلة." (1)

عشق آدمي تربّى من سالف الحقب في أغوار المهج مذ كانت الرّوح ترفل في سحائب الخلد. و ما كان العشق ليثمر لولا لقاء حميميّ كانت حواء أرضه ومهاده.

من ذلك الحين من الدّهر تولّد معنى الوصال. و انبثق فجر الإخصاب.وانبجس رحم الولادة فتعطر الكون برحيق الجنس.

" فضمّها بشغف تمادى في خلوة الصّحراء و أصابعه تتخلل شعرها المضيء بشعاع القمر. و همس بصوت غريب لاهث.

- عندما يطلع الفجر...

و ألصق خدّه بخدّها.و راحا ينظران إلى القمر الناعس في مستوى البصر.و لا من قوة تستطيع أن تستديم اللحظة الإلهية. اللحظة التّي وهبت الكون يوما سرّا جديدا(2).

عبق الأريج من الشّفاه.و سطع النور من القبل.و اكتمل معدن الخلق من حرارة الوجد. و لاحت بوارق معنى الحياة.و ظهرت في النفوس آثار حلل الامتنان. مشاعر متدفقة ظلت تسري في الأزمنة الغابرة مياومة و مشاهرة و مسانهة.

و لا مرية أن تنزف هذه المشاعر رحيقها تترى دونما ملل. و أن تتقيل نسائم الوجود و فيضه المعطاء. كيف لا و هي أرقّ من النّسيم و ألطف من ماء الحياة في المحيّا الوسيم.

و غير خاف أنّ الشّعور الآدميّ يتدفق كالماء الزلال. فيفيض على محدود الزّمان والمكان إن قولا أو فعلا.

" يغرقان في أحاديث لا نهاية لها عن الماضي و الحاضر و المستقبل و الواقع والخيال والحقيقة و الحلم تتخللها القبلات و الملاطفات" (3).

وعلى ضفاف الشعور الآدمي انتصبت الحضارة و اجتازت شعابا و ارتادت مجاهل وعرة. من هذه البؤرة تتأجج نيران الحياة.و تقف تأوّهات الزمن تتعلق بالشعور فتاتيه من أبوابه و تسترشد سبل أسبابه. كل الكائنات من معين الشعور ينبض وجودها و من جُلجلان القلب أو قرار النفس تتولّد حركتها الدائبة و يثمر صنيعها الخلاّق.

" الرّنين الأجوف لا يصدر عن إناء ممتلئ.و لذلك فالنشوة هي اليقين.و لذلك فإنّ أملي الأخير أن يجود الحب بنشوة دائمة." (4)

ذي حواء تستلقي، تتوسد الأرض مهدا.و تتجه صوب السّماء دفئا و روحا وقد عجم عودها .و تمددت مسترخية ليس لها في ذا الوجود حوجاء و لا لوجاء.

مغمضة العينين كأنّها في لحظة المناجاة تخطب أملا رقيقا حلما سرمديا،خلقا عسجديا.

عارية الجسد يشعّ لمعانها بريقا. و تلألأ في ظلمة الوجود و قتامة الحياة جسد غضّ رقيق ناصع البياض يكسوه شعر قد تدلّى كما الثّمر الدّاني. أغصان تهدّلت على الكتف فكست العظام و جمّلت القوام و هذّبت الخليقة حسنا و بهاء.

فارعة القوام كالنخل الباسق تستقبل آدم و قد تزينت بأنشودة الغرام. شفاه كستها الحمرة جلبابا و توّجها العشق نيرانا. ينبعث منها دفء كدفء الرّبيع و حرارة كحرارة القيظ و ارتعاشه كإرتعاشة أوراق الخريف. فصول الحياة في تلك الشّفاه تجمّعت و غاب الشتاء بزمهريره.

و ذا آدم يصهر نصفه الثاني بكلتا قوّته. و يعكف في محراب الجسد بكلّ خشوعه ينهال على ذاته العميقة يداعبها و يراودها يبحث عن مفقود فيها و عن صدى وقع بها و عن أسئلة ضاقت الدنيا بحملها و عن معنى تلاشي في

كيانها. يبحث عن نفسه فيها و عن ذاته منها و عن مصيره إليها.فمنها إليها سحر موجود و أمل منشود.

" و قلت له تصوّر أن تكسب القضية اليوم و تمتلك الأرض ثم تستولي عليها الحكومة غدا. فقال لي : ألسنا نعيش حياتنا و نحن نعلم أنّ الله سيأخذها."(5)

عناق يخترق الجسد في عنفوانه الشديد.و يخطب الرّوح في عليائها المتوهّجة.ذات غريبة و أشلاء مشتتة تلتحم بذات لاَ كالذّوات رقّة و لا كالنفوس طلاوة و لا كالقلوب سعيرا. تشتت فحيرة فارتجاج من الأعماق.

" و لبث يلهث و يتقلب في النشوة.و يتعلّق بجنون الأفق. و تنفّس تنفسا عميقا كأنما ليستردّ شيئا من قوته عقب شوط من الرّكض المذهل. و شعر بدبيب آت من بعيد.دبيب إقامة ينذر بالهبوط على الأرض". (6)

ذات متصوّفة في عزلتها لا تبحث عن المطلق في رحاب المطلق تتّحد به.و لا عن الوجود تستغرق معه.بل تنطلق من نفسها إلى أنفاسها تناجيها،تسائلها تترنّم معها أهازيج

الرّوح المعذّبة.حركة ارتِداد من ذات العاشق إلى ذات المعشوق-و انسجامها انسجام عميق بين كائنين غريبين في نفسيهما.

" تبدّت زينب برأس وردة و وردةبرأس زينب.و إذا بسمير يثب إلى الأرض متخذا من رأس عثمان رأسا له.ثم يحبو نحوي. و فزعت فعدوت و الكائن المركّب من سمير و عثمان يتبعني." (7)

مقام من الحيرة و مشهد من التذبذب لا تستطيع الأوصاف أن ترقى إلى رتبته.و لا الآمالِ أن تطوف حول كعبته.و لا الشّفاه أن تبوح بسرّ أسراره. " و تنهدت في إعياء و فتحت عينيّ في الظّلام.ماذا يعني هذا الحلم إلاّ إنني.فكيف أفكر فيك طيلة يقضتي ثم".(8)

تأمّل المشهد في الصّورة مثنى و ثلاث و رباع.فما إخالك تقتله دلالة.و ما أحسبك تملّ رؤيته.وَ وَلِّ وجهك حذو كلّ ناحية منه تجد صورة حيّة ناطقة متوهجة تعانق داخل الرّواية عبارة سافرة مع الوجود الغامض.

ما بين الصورة و الكلمة رباط عظيم و زواج ولود ينصهران بلا هوادة. فتستحيل الصّورة كلاما و يستحيل الكلام داخل النّص إيحاء كلاما على الكلام و رمزا من باطن الرّمز أشبه ما يكون بالمعنى و معنى المعنى.

1) الشحاذ ص.86
2) الشحاذ ص.87
3) الشحاذ ص. 125
4) الشحاذ ص. 121
5) الشحاذ ص.110
6) الشحاذ ص145
7) الشحاذ ص. 205-206
8) الشحاذ ص.206

مقال: أحرز على جائزة النقد في المهرجان الوطني للأدباء الناشئين بحيّ الزّهور. الدورة التاسعة جويلية 1996

الواقع و الفن

قد يتراءى لي الواقع أحيانا قيدا يأسر الكائن ويشدّه إليه دونما حراك.

و كلّما نظرت إلى الواقع شاهدت انتشار الظواهر متعاقبة و تداخل الكائنات متواشجة و تناغم الحركات متراقصة. و كلّما دقّقت النّظر في الواقع أسفر لي عن طبيعته المعقدة. و يحتلّ المكان في الواقع منزلته. و قد يستحيل أحيانا أسرا للرّوح والجسد.فيحرمها من الانعتاق. و إذا كان المكان يفترض الحدّ و القيد.أفلا يصبح في الفنّ بلا حدّ و لا قيد؟

قد نصل إلى ذلك لو أننا تأملنا معا المكان في القصيدة الشّعرية.فأول ما يشدنا أنّ الفن لا يعترف بسلطان المكان في الإبداع. و مهما حاول الفنان توثيق نصّه بذكر الزّمان و المكان فإنّه لن يبلغ رواسب الواقع لأنّ اللّغة تفلت من قيد الواقع كلّما عبّرت عنه وَ انغمست في دروبه.

فلا يذهبنّ بنا الظنّ إلى أنّ اللّغة الإبداعية تمتح من الواقع عبارتها وإن فعلت ذلك فالبارز هو الصّدى و ليس الواقع.

إذ شتّان ما بين الواقع المعقّد و بين اللّغة الشفّافة وَ شتّان ما بين المرجع وأداة التّعبير عنه.

و هكذا يسمو الإبداع عن الواقع كلّما أوهم القارئ بالتّعبير عنه.

القسم الثاني في الوجود

اللّذة الكبرى

و كانت المشاعر تعصف بي فلا أستطيع دفعها أو إيقافها. و متى كان الشّوق يعرف حدّا ينتهي عنده. واستيقظت نفسي على أنغام الحبيبة بعد أن داعبتني مداعبة لطيفة. و قالت: أيّ فتى أنت؟

تريد ركوب بحر الهوى و أنت لا تجيد فنّ السباحة. أراك تحبّذ المغامرة.

قلت و قد عيل صبري: ما كنت عن ركوب الهوى معرضا بل إنني في شوق دؤوب إلى الوصال. فالجسد مني قد اعتلّ و العقل فيّ قد اختلّ و حالي كيفما قلّبتها سيّئة. فالشقيّ من هو في وحدته غريب. أتدري ما الغربة؟ ما كانت الغربة فراقا بين حبيبين ولّد في نفسيهما جرحا لا يندمل. بل الغربة هي أسر للرّوح في الجسد و هي عقال للقلب يحدّه عن الخفقان. بل هي موت للإحساس في ذات المحبّ.

و همهمت مبدية امتعاضا و قالت ساخرة " بدأت كدأبك، تتفلسف في الوجود فلسفة أبي العلاء في محنته. أفلا تريد من يدفعك صوب الحقيقة. فالواقع يناديك -والمجتمع لا يعرف طريق الأحلام أو المداعبة الفكرية. أفلا تلتزم طريق العقل ديدنا لك؟

و لم أفهم خطابها. و ضاقت عبارتها بصدري و اختنقت أنفاسي. فانتفضت من جلستي أصيح: ألا تعرفين حديث الفكر في لحظات التأمّل وَ الاستبطان. بل أراك تسخرين من الفلاسفة و المتأمّلين. و ما كان يحقّ لك ذلك. أو تعتقدين بالانفصال بين العقل والعاطفة في ذهن الإنسان؟. أو تظنين أنّ العقل البشريّ لا يعرف سبيل العاطفة أو التعاطف؟. و سكتت فلم تنبس ببنت شفة. و خلت أنّني خضدت شوكتها فأفحمتها.

و استدرجتها ثانية نحو الحوار:

أتريدين العيش بعيدا عن الوصال أم تودّين البقاء في الأصفاد؟. ألست ممن يعشق القلب و منطقه و يقدّس الفنّ و مبدعه و يستطيب السّحر و صانعه؟

و قاطعتني: أتريد أن تزجّ بي في منطق لا أُفقهه. فلكم حدّثتك عن عاطفتي الميّتة و مشاعري المندثرة منذ أمد. أفلا يرضيك همسي أم إنّك لا ترتاح إلاّ إذا عرفت ما بنفسي؟

إنّني عن العاطفة لاهية. و أريد أن أصير في الواقع فاعلة. فإن وجدت كشفا جديدا فأنِرْ سبيلي و قوّم طريقي وَ ثقّف مسلكي لأعرف أقومه.

و لكم وددت أن تنهزم أمام منطقي. و حاولت أن أخفّف من غلوائها مستدرجا إيّاها إلى منطق اللّذّة الخالدة. وَ بصوت نابع من الأعماق قلت : " من المحال أن تعيشي في وحدة قاتلة. و من العبث أن تبقيْ سجينة عقل جافّ لا يشعر و لا يحبّ. فالسّعادة لحظات من عنف التّاريخ نقتلعها وَ اللّذّة فترات من الدّهر نقتنصها والزّمان لا يرحم. و إنّ

العاقل من أنصت لنداء القلب فتحرّر من أدران القيد و تناغم مع أشواق النّفس.

فماذا لو حاورتك بلغة هي سبيل التّحرر أو بعاطفة عميقة و لكنّها جيّاشة أو بقلب صادق و لكنّه لا يستحي.

أتدركين أنّ منطق اللّذة الخالدة هو سبيل الهائمين فِي خضمّ الوجود و شعابه و ثناياه؟

و أبدت قلقها فقاطعتني: إنّك تبدو كائنا غامضا.فكلّما أصغيت لقولك ازددت تيها في حديثك.فحلّقت بي في عوالم لا أعرف كنهها و لا أفقه طريقها. أفلا تحدّثني حديثا أفهمه فتزول حيرتي و يطمئن قلبي. لا تلغز فالوجود ملغز.

وَ وددت أن أبثّها حيرة.فاستأنفت حديثي مع منطق اللّذة متأمّلا غير مبال بما أبدته من امتعاض. فقلت:لعلّني أكون غامضا في حديثي.و لكنّ مقصدي واضح.إنّ طريق اللّذة يخترق عوالمي و يفيض من وجداني دونما حدّ.

و يناجيني بآستمرار في عشق و هيام. و أراه مصيبا في دعوته. محقا في ندائه.أو ليست طبيعتنا صيغت من اللذة و المادّة. أو ليس خلقنا من الماء و التّراب. فالمادّة رمز للذّة تنساب من سحائب الكون لتخلق معدن الإنسان.

أفلا تذكرين قصّة الخلق؟.

إنّ اللذة خلقت الإنسان في لحظة الخطيئة فجعلته يحسّ بمولد كيانه.و بثّت فيه نفس الحياة بعد أن كان طيفا من الملاك. أنخجل من الحديث عن أصل خلقنا وذواتنا فنجهل أنفسنا و يجهلنا الآخرون؟

و لكم جهل بنو الإنسان أنفسهم.و لكم ظنّوا أنهم يعرفون و لكنهم في جهلهم غارقون. و لكم حسبوا أنّهم يعلمون و لكنهم عن الهدى غافلون. فأحر بهم أن ينتبهوا من غفلتهم و يثوبوا إلى رشدهم ليعرفوا سرّ أنفسهم قبل أن يهجم عليهم شبح المنيّة فتنقطع أنفاسهم و تذهب حسرات.

إنّ اللذة الكبرى أصل في كيان الخليقة و عليها تأسّست عاطفة الإخصاب والنّماء.و بها اكتمل الإنسان من عنصر النّقص.و غدا في الكون سيّدا و في العلم معلما.

أظنك الآن قد فهمت مقالتي.و وعيت غموضي و أدركت سرّ ندائي و مبعث ألمي. فلم تتمالك نفسها عن الابتسامة.و باح صدرها بمكنون الألم.و عطفت نفسها على رقة فؤادها.و نادتني: أراك تبالغ في فهمك منطق اللّذة الكبرى.و أراك تشكو نقصا وجدانيا.أفلا تتزوج لتتحقق سعادتك؟ فربّما و جدت اللّذة الكبرى بين أحضان من تهوى فلِلهوى سلطان.

فقاطعتها: و من أهوى في نظرك؟ إنّك لم تفقهي ما قلته.أو تظنّين أنّ المرأة تحقق لذّة الكائن؟ فلذّتي لا أجدها عند امرأة لا تدرك كنه اللّذة. لقد أدركت بإحساسك معنى اللّذة فوقفت عند ويل للمصلّين. ما كانت لذّتي شهوة عابرة أو إحساسا في إرواء نزعة جنونية و ما كانت لتكون نزوة تعصف بالقلب فيرتوي الجسد و يخبو لهيبه.

أراك تتسلحين بمنطق الإحساس و أراني أسبح في عالم اللّذة. فأنسج قلائد من الفكر و أصوغ عقودا من الوجدان. أراني أتحرّر من أسر الجسد فأفيض عنه بمنطق روحي يسمو سموّ النّار. و أراك تقعين في حبال الشيطان و تصغين لنداء الإغواء.

أراني أحاور عقلي فأصوغ منه فلسفة في الحياة. و أراك تناجين جسدك لتتمتّعي لحظة من الزّمن ثمّ...أراني أرغب في الهيام مع العقل و مع دنيا البقاء أرفل في أثواب النّعيم السّرمدي و أجول في عوالم فكرية أزلية. و أراك تلتصقين بعاطفتك إلى دنيا الفناء تودّين المكوث في الجسد وَ اللّذة العابرة.

أراني أريد الخلود مع الذّات في ذاتي و مع الفكر في عقلي و مع اللّذة في جسدي. و أراك تخطبين طريق الفناء لترتوي نفسك بعد الظمأ و تخصب أرضك بعد الجدب.

أراني مع الخلود في دنيا الخلود و مع البقاء في رواء ساحر و مع العيش في حقيقة لا تعرف طعما للخداع.

و أراك مع الموت تتصارعين و مع الدّنيا ترقصين و مع الجسد تعشقين ماءه في شوق غريب. أراني مع رؤية لا تمحّي و رؤى لا تنقضي و أسرار لا تنتهي وأراك مع رؤية كاذبة و برق خلّب و جمال زائل.

فرؤيتي في دفق العاطفة تجول و في سحر الوجدان تبوح بسرّها.و رؤياك أضغاث أحلام تتكشف سريعا فلا تبقى مع الأبد.

و ظللتُ مع نفسي أسّاءل. و تهت في عوالم الفكر. إلى أن غبت عن دنيا الكون.فسموت بروحي عن منطق الخلق.و سبحت بنفسي في عوالم الخلود حيث الحقيقة واحدة و الجمال دائم و اللّذة متحرّرة طليقة في مدارها.

و أفقت من غيبوبتي تحت وقع المنادي يردّد " حيّ علَى الصَّلاةِ".

الرّحيل

و كنت في دنيا الأحلام مع المشاعر اللذيذة أتسلّى. و خلوت بنفسي أناجي السّعادة في همس عذب و شوق متدفق. و مرّت الأيام سريعة و المشاعر ما انفكت تحتد و تنمو. و كنت في ذلك الزمن أحسب اللّذات قد غدت في قبضتي فأجد السّعادة قريبة منّي بل هي أقرب إليّ من حبل الوريد.

و ذات يوم بينما كنت غارقا في بحار الوجدان نزلت عليّ رسالة من حبيبة عشقتها. و لكم راقني حضور رسالتها مثلما أرّقني طول غيابها. و لم أخف فرحتي عن القاصي و الدّاني. فهللت مستبشرا و انبعثت من أعماقي أصوات الفرح.

لقد ولدت من جديد. فهذه الرسالة في قبضتي. و هذه الحبيبة قد عادت إلى قلبي الظمآن بعد فراق طويل.

و فتحت الرّسالة. و تأمّلت سطورها، فوجدتها تتدفق حيويّة و أملا في الغد السّعيد. وقرأت كلماتها قراءة سريعة أتلهّف إلى معرفة ما بين السّطور... فوجدت عبارات البهجة والفرح و السّرور. و حمدت الله على بقاء المودّة. و عشقت الحبّ الخالص بين ذاتين فلا يبلى. ويظلّ يسري في الوجدان فلا يفنى رغم المسافات و بعد الأوطان.

و ما إن واصلت قراءتي إلى آخر الرّسالة حتى راعني ما راعني: إنّها جملة كتبت في آخر الرّسالة فكادت أن تعصف بروحي و تقتل أنفاسي الرّقيقة.

لعمري إنّه موقف غريب" علاقتنا ينبغي أن تنتهي". هكذا خطّ على آخر الرّسالة و هكذا ختم الكلام. إنه سطر من العبارة شحن بمعان عنيفة و قرار حاسم لا رجعة فيه.

أفيمكن للمشاعر و قد أسّست على المحبة أن تموت في طرفة عين؟ وَ أنّى للحبّ المتأصّل أن يستأصل فيجف ماؤه بمثل هذا الجنون؟ أكانت حبيبتي تدرك ما تفعل أو تعي ما تخطّ؟

و هرعت إلى روحي أناجيها و إلى نفسي أسألها و إلي قلبي أخفّف من روعه.

عجيب هو أمرها و غريب صنيعها. أيقابل الصّدق بالخيانة ؟ أينقلب الملاك الطاهر إلى لئيم متمرد؟ أيتحول الصّادق الصّدوق إلى خائن كذوب؟ أيصير العفّ الأبيّ خسيسا شقيا؟

و هرعت إلى الكتب أتأملها عساني أجد فيها تبريرا يعلّل لي ما حصل. فلم أظفر ببغيتي. و رجعت إلى نفسي حيران أسفا أجرّ أذيال النّدم و أحترق من لوعة الغرام. و بحثت أياما. و انعزلت عن الدنيا شهورا، و اغتربت، فهجرت الكون وأهله و الدّنيا و شرورها والحياة و مباهجها.

و خيّل إليّ ذات ليلة و بينما كنت في وحدتي متأمّلا إذا بشبح في صورة آدمي يقترب منّي في ظلمة حالكة. و دنا شيئا فشيئا. فلمس مكاني و خشيت أن يلحقني منه

مكروه. وارتعدت فرائصي و خفق قلبي و ارتعش، و الشّبح يطوف حولي كأنّه يبحث عن شيء فقده.

و كاد أن يغمى عليّ من فرط الخوف .فحاولت النّهوض من غفوتي.و رفعت رأسي والدّهشة لا تفارقني. و تكلّم الشّبح بصوت بليغ قائلا:

- أو تنتمي إلى عالم الإنس أنت؟

- قلت : بلَى فأنا بشر كما ترى.

- قال: أتعلم علما يقينا قصة خلقك و طينة نسجك و أصل طبيعتك؟

قلت:علمت جزءا من القصة مذ كنت صبيا يافعا.

فأجابني: أراض أنت عن أصلك أم تريد هروبا من طينتك.أترغب في الخلاص من دنيا الفساد؟

و أغراني كلامه.و تعجبت من كيفية الخلاص من أسر الجسد. محال عليّ ذلك. و من الجنون أن يهرب الواحد منّا من قشرته إلاّ إذا كان يعاني وهما و...

- و قاطعني قائلا: أجدك في عزلة و تعلو وجهك أهوال السّنين و عذاب الدّنيا. أظنك فقدت عزيزا عليك. فران عليك ما ران من بؤس و شقاء.

- فردّدت عليه قائلا: نعم لقد أضعت نفسي بنفسي و ألقيت بروحي في جهنّم الأسر. و تهت بقلبي في عوالم الهوى. و لم أحذر عواقب المغامرة. فأنا كما ترى بائس تعيس. يرين الظّلام على صدري و يخيّم البلاء داخل فؤادي. و مضى يتحدّث إليّ: هكذا أنتم البشر لا يعلم أحدكم عاقبة أمره إلاّ بعد فوات الأوان و أفول السّعد.

- فقلت و قد علاني الحزن و اهتاجت عبرتي: أنا بشر ضعيف. و لم أفكّر مليّا. بل خضت في بحار عميقة. فوجدت نفسي فجأة في براثن القسوة و التّشقي من عذاب وقعت في حباله دونما ذنب. فهويت إلى قرار سحيق بعدما جنّحت في عوالم عجيبة ولم تكتمل. و ها أنا ذا كما تراني لا أجد بلسما يضمّد جراحي و يطفأ لهيب مشاعري و يلطّف من هول فاجعتي.

و خاطبني في تودّد: أتودّ السّفر معي إلى مكان بعيد عساك نجد فيه ملجأ.

و قلت:عدّتي ضعيفة و نفسي هزيلة و روحي مقعدة لا تستطيع حراكا. لقد فقدت ماء الحياة و انطفأت فيّ عذوبة الحركة.

و في لحظة وجيزة حسم أمري قائلا: سوف تسافر دونما حركة و ستصحبني في السّفر دونما عدّة.فقد اكتملت عُدّتي و مازال ينقصني رفيقي، إنهض قبل أن يبزغ فجر الصّباح. نريد رحلة في الظلام فلا يرانا إنس و لا جانّ و نريدها رحلة إلى نهر الخلود. ..

فلنحثّ خطانا و لنصبر على بلاء السّفر. أظنّك الآن تقدر فأنهض لتشحذ همّتك و عزيمتك.

و تحرّكت من مخدعي.و انتصبت واقفا و عزمت على الرّحيل معه. فتأبّطني وسرنا معا في سرعة مذهلة. فآخترقنا حجب الظّواهر.و اجتزنا بحارا وأنهارا.وحلقنا في قمم الأعالي. و كان يطير و أنا أتأبطه فخشيت السّقوط.

و ساورني الخوف.ونظر إليّ و همس في أذنيّ: سنصل قريبا .إلى نهر الخلود. و سننزل لترتوي منه.أتعلم أنّ نهر الخلود لا يفنى و من شرب منه شربة فلا يظمأ بعدها.

وَ شوّقني إلى مشاهدة النّهر.و نسيت حينها مخاوفي. بل تقت إلى مواصلة الرّحلة.فابْتهجت و سررت و بدأت أنسى أنّني بشر.

و ما إن وصلنا حتّى نزلنا فوق صخرة ملساء. نظرت فلم أر أحدا و أنصتّ فلم أسمع دبيبا.و علمت أنّ المكان قفر.و أنّ الفضاء رحب و أنّ النهر عذب و جميل خلاّب.

و أمرني بالنّزول إليه. فلبيت النّداء. و أسرعت فرأيت هناك مالا عين رأيت. رأيت ماء يسمو لونه على لون البياض.و سقاني منه بيده.و مسح به بدني. فشعرت بعدها ببرودة تسري في مفاصلي و بخفّة عجيبة كأنّي روح بلا جسد و شعور بلا ألم.و فقدت صوابي.فلم أعد أشعر بوزني فقال لي: لا تخف أنت الآن ملاك. لقد ارتويت من

نهر الخلود فحللت في دنيا الكمال بعد أن سموت عن دار الفناء. إنّك في رحاب المطلق و في عالم الخلود فسل ما تريد تنله.

و اندهشت لما سمعته: هل أنا الآن فوق البشر؟

فأجابني: لا تعجب لقد قادتك نفسك حيث تطمح. ألم تكن تعاني وحدة واغترابا. ها أنت الآن تخرج من دنيا الفناء كما وددت لتتصل أنفاسك بعالم الخلد. وها أنت الآن كائن متجدّد. أتذكر ماضيك؟

وَ ظمأنني قائلا: لقد تجاوزتَ الآن النّسيان.فأصبحت في لحظة التجلي والإدراك. لقد طابت روحك الآن فصرتَ كائنا جديدا و غدوتَ جمالا فريدا.

لقد غدوتَ مع الوجود في رحلة أزلية.

و فجأة سمعت صوتا ينادي أن أفق. لقد حان وقت العمل .و كانت أمّي بجانبي: أظنك نمتَ طويلا يا بنيّ. فالسّاعة العاشرة. و نفضت عن نفسي رداء النّوم.و أفقت

بعد رحيلي فوجدت الشّمس مشرقة و النّور متلألئا.
و وجدت الحركة عالية ضجيجها. و بدا لي أنّ الإنسان
كائن يحلم دائما و أنّ الحلم لذيذ.و ألذّ منه رحلة النّفس
باحثة عن الحقيقة.

إليك... إليك ترتيل لحن المحبّة

إليك حبيبتي روحي النشوانة برحيق الغرام و قلبي المزوج بنسيم السلام ومهجتي الجميلة على الدّوام.

إليك حبيبتي تاج ودّ مكلّل بالرّياحين و نغمة ألفة مرصّعة بالجواهر و ترنيمة بلبل في حديقة غنّاء.

إليك سحائب جودي مذاد عطرٍ و روعة سحر. إليك خزائن مشاعري و روح مودّتي ونشيد سرّي و علانيتي.

إليك حرارتي دفئا و حلما و أمنا. إليك مكنون وجداني و الخالص من بياني والساحر من عرفاني و الرّقيق من المعاني والعذب من ألحاني و الفائح من أزهاري و السّاحر من أشعاري.

إليك نسائم السّرور السّرمدية و روائح الجنان القدسية و لطائف المحاسن السّنية.

إليك معشوقتي كأس غرام العشق صافية نقية ترشّفيها على الدّوام دواء للأسقام الخفية. فإنّها نعم الرّاح للأرواح الشاعرية.

إليك يا شمس الوجود الساطعة على البرّية، تهبك إشراقة ونضارة فيزداد حبّك لي لهيبا لا تفتر له حرارة.

فأنا المتيّم بروحك العذبة النقيّة و براءتك الوديعة و فتنتك السّافرة بلا برقع. وبسمتك اللّطيفة الحالمة تاجك

يا عروس الكواكب السّماوية. فشمس النساء أنت

يا قبلة العشق بل كعبة القصّاد السنّية.

وهبتك روحي. و أغدقت عليك جودي. و منحتك أخلص مشاعري. فكوني بها حرّية. و صونيها فإنها مشاعر بل جواهر للقلوب بكل معانيها اللّدنية. يا من فاحت أرجا و مسكا على البشرية. و هبتك نفسي و أنفاسيَ الزّكية

و سكنت قلبك.و سبحت فيَ وجدانك عساي أقطف وردا لا تنتهي روائحه المسكية.فوجدت نرجسا و قرنفلا.فقطفت من الورد ما أحياني شذاه و هيّج فيّ القلب و القريحة، و هتفت إليك بكلام لا تفهمه الألسنة البشرية و لاَ تعيه إلاّ العقول النورانية و المهج الرّوحانية. كذلك كنت معك على درب التّصافي و حسن السَّجية. و وعدتك سعادة عسجدية تفيض من بحار الأفلاطونية و تمتع من معين المثالية.فأنا لذلك أعيش و أحيا و أتنفس قربك وأستنشق من صدرك نشوة الشّباب المتدفق.فأراك ببصيرتي و أشاهد معنى حسنك بالنّظر.و أستمرئ عذوبة صوتك بآرتعاشة الشّفاه و خواطر الفكر.

الكلّ يرغب في هـــــواها راجيا

وَ الخلـــق يجمع أنه يهواهـــا

وَ الشّمس تشرق من سناها بهجة

وَ اللّيل يزعم أنـــه يخشـــاها

هذا الـــوجود فعن فؤادي لا تسل

ليت الزّمــــان يعيرني لقياها

لأعيش مرتـــادا بحار جمالهـــا

وَ أموت منتشيا بطيب مناها

5 ديسمبر 1995

سوق الأحد قبلي

و كنتُ فِي الزّمن

و جاشت بنفسي عواطف الحنين إلى زمن مضى، و إعتلج فكري بنسمات شوق دفين في قاع الوجدان. و كنت في ذلك الوقت في دوامة الحيرة أجول بفكري. فلا الزّمن يثنيني بوعيده و لا المكان يمنعني من التنقل في أرجائه.

و كانت متعة التأمل، أستبطن خباياها في لحظة الانفراد. فأرى الوجود في تقلب عجيب. و أشاهد الكون و قد تمنّع فلم تبد محاسنه للناظرين، و أنشد الطبيعة وقد رقصت في حُلل الحسن و تزوجت من درر الجمال. فأنهالت عليها بَركات السّماء بلا حدّ.

و كنت في ذلك الزّمن أصيخ إلى أنغام عِذاب. و أسترق نغما رائقا في إيقاع حسن ولحن هزج و صوت شجيّ. فرَقّ لها قلبي و دمعت عيناي. فلاَ الأنغام بقادرة على هجر نفسي. و لاَ الألحان تجري دونما همس في خاطري.

وِ ظلت فيِ ذلك الزّمن أبحث عن مكنون الأشياء. و أرفل في دنيا الحياة.فأجد الإشارات بعيدة القرار. و أبحث عن الاستعارات فلا تسعفني النفس و هي في تيه إلاّ بالعبارات تتدفق في عنفوان الشّباب.و لكم أرّقني صمت الوجود و هو يسكن في خيمة الليل و النّهار.فيتحاوران في حَركة لاّ تمّحي و تناوب بطيء لا ينجلي.

و لعلّ صمته آية من آيات عجبه. فقد جاشت أنفاس الوجود ما إن طلعت فيه شمس الحياة. فأنارت سبله وَ شعشعت مسالكه.فإذا النّور كلسان الشّمعة يترقرق صفاء وَ يغدو متلألئا كصفاء الدّمعة. و تاقت نفسي إلى القمرِ أتملّى جماله و قد كسي آيات الحسن و البهاء،فإذا به يرفل في مِحرابه و يتعشق نسج جماله.فكلمّته فما أحار جوابا.فما تقول في نوره و قد انبعث خيوطا متدفقة.و انغرس في الأرض أعمدة راسخة فرعها في السّماء يعلو و صداها في البَسيطة ينشر.

و أنّى للقمر أن يحاورني و هو في برجه يميس في ابتهاج و فرح مستديم. ولقد أجلت فيه بصري و كرّرت في

حسنه نظري، فبسط لي أسِرّة وجهه.وفتق لي عن حجب سمعه فردّد:

من الوجود تعلّمت سرّ الإشراق.ومنه تعلقت بحبال البقاء.فرضت بحار الأنوار وخضت مفاتنها.و بكى من فرط شوقه إليّ.فلم ينفعه الاستعبار.و إعتذر طويلا عن صمته فلم ينجه الاعتذار بعد أن أفل نيّره فخبا في طرفة عين.

وانتقلت إلى الشّجرة أكشف سرّ خلودها.وأصغي لحكمها تخبرني عن الوجود، فإذا بها قد عاشرت الدّهر لتخبره.فما عرفت كنهه. و استرفدته فأمتنع وغازلته فتمنّع. وَعيل صبرها.واشتد ألمها.فأضحت في همّ تشكو جرحها ينزف لوعة:

أنا الشّجرة الباسقة،أحوي الثمار اليانعة والأزهار المنوّرة.ولم أر من الدّهر سوى صنيع يقشعر له قلبي وقد تغلغل مرّه في صدري. وشربت من مائه فما ارتويت و اجتهدت في رضاه فما أفلحت.

فمازلت أرضيه وِ أصافبه حتّى حشرج النّهار فأصابني البلى.

فما مضت برهة إلاّ و الشجرة من العطش ميتة و عن النَّفس منقطعة. فهتف هاتف.

إنّ القلوب إذا تنافر ودّها

مثل الزّجاجة كسرها لا يجبر.

ثم بحثت عن الأرض أتوّسدها.و لقد نشدتها طويلا حتّى وجدتها. فكانت في أبهى صور الجمال. فسارّتني بعذب الكلام.فأنشرح قلبي.و تكرّرت الغبطة في نفسي ما إن وطئتها وَ سمعت منها من العظات ما فتّق السّمع فوصل إلى القلب.و خاطبتني في رفق:

ما قولك في راحة أبدية تُنسيك همومك وتبعد عنك الشّجَن.فتغدو بها متيِّع الصِّيت كثير الذّكر. وَ راقني كلامها فوددت منه المزيد.فأنبرت تقول:

لقد كوى الجزع قلوبَ البشر. و شقّت الفجيعة جيب الثّكلى. و لكم عصفت بكم معشر البشر يد المنون فما أبقت منكم شيئا. ولكم عبس الدّهر في وجوهكم وانتصب الزمان في طريقكم: فإذا الأمر بالضّدِ و إذا فعله فيكم عين الجدّ. ولكم غبّر دخان الحياة وجه الحسناء. فأخذ جمالها أُخذ خِلسة. و ذهب بحسنها سريعا. ولكم رغبت نفوسكم إلى معرفة المطلق. وتاقت إلى محادثة المقدّس. فلا الأماني جنت ولا الخلود أو الأحدوثة حققت.

فهيهاتَ هيهاتَ " أن يدرك الظّالع شأو الظّليع". حقيق عليّ و أنت تتوسد ترابي أن لا أقول غير الحقّ.

و ما إن أسفر وجه الصّبح حتى وجدت نفسي ترتعد فرائصها من لسعة القرّ، فملت إلى الفراش أستريح من عناء التأمل. و رددت نفسي أن كفّ عن التّجوال. وقدكَ ما أصبتَ من الحيرة. و جلستُ ممتدا على الفراش فإذا بالمؤذن يرفع عقيرته مُردّدا: الله أكبر.

- سوق الأحد- قبلي

1995/01/20

حوّاء يا فاتنة البشر

كلّما وقفت أمام أمواج البحر أتأملها، سرت في نفسي قداسة الكون. وكلّما أبصرت الماء يتدفق غازلتني روعة السّماء تغطي بزدائها نسيم البحر. فأنظر مليا وأحدّق صوب الأفق البعيد...

إنّما الكون فيض من المشاعر تعلوه لذة الوصال بين الكائنات الخفيّة. عجيب ذلك الوصال المثمر: يهب لمن يشاء عطر الوجود و يرزق من يشاء أرج النفوس ويمسك عمّن يشاء دفء الحياة.

ها إنني في بحر الوجود أشاهد أمواجه تدوّي. فترتعد فرائصي. وذي الرّيح تسابق الموج فتقذفه يمنة و يسرة. فإذا قطرات الماء تبعث في الرّوح الميّتة أمل الحياة. فتدب ارتعاشة النّفس في شِغاف القلب. فيخفق سريعا و يجيش منه غيم الحياة الحزين.

في ذلك الفضاء الرّحب، عانقت طيف الحبيبة.
فهمست في قلبها همسة الحبّ الوديع .وامتصصت من شفتيها عذوبة لحن الوداد إلى أن رتّلت في مسمعيها أغنية الوصال.

أهاجني صوتها الشّجيّ. فأسال عبرتي. و أيقظ لوعتي.

أرّقني صمتها: كلّما تحركت شفتاها وارتعش لسانها بلحن الوصال تمنّعت العبارة خشية عين الرقيب تلحظها, و خبت في روحي لذائذ الأمل. .

أيقضني سفور جسدها: كانت تعانق الطبيعة و قد تعرّت من دنس الحياة.وكانت تغتسل في نهر الخلود فيسيل الماء على أطراف الجسد ويرتوي بعد ظمأ.

هي عذوبة الطبيعة تلامس جسد الأنثى.فتفيض منه روح الحياة.وتتأجج ينابيع الأمل لتسري في المهج مباهج الفرح. وتتعطر بالأرج قلوب النّدامى وتخصب بالوصال أرواح العذارى.

أتعشّق ذلك الجسد العاري الملتف بينبوع الطبيعة.
وَ أتملّى ذلك الحسن السّرمديّ وقد فاضت منه أنوار الطبيعة. فشخصت الأبصار وتوقف الجميع في خشوع. و رتّل الكون أنغام الخلود. كذلك خلّد الشّاعر في ديوانه صورة للمغتسلة وهي تعانق الطبيعة. فعدّت من أجمل الصّور. لقد تفنّن أبونواس" في تصوير ذلك الجمال بريشته يخلق بالكلام نغما من الألحان. أليس هو القائلَ:

نضت عنها القميص لصبّ مـــاء

فورّد وجهها فرط الحيـــاء

وقابلت الهواء و قد تعـــرّت

بمعتدل أرق من الهـــــواء

ومدّت راحة كالمـــاء منهــــا

إلى مـــاء معد في إنـــاء

فلمّا أن قضت و طــرا و همّت

على عجل إلى أخذ الرّداء

رأت شخص الرّقيب على التداني

فأسلبت الظلام على الضياء

فغاب الصّبح منها تحت ليـــل

وظلّ الماء يقطر فوق مـــاء

فسبحان الإله و قد براهــــــا

كأحسن ما يكون من النّساء .

كنت أستمرئ جسد الأنثى ، فيغدو نظري سحرا، و يمسي مسمعي عشقا ، وتتفجّر في قريحتي عصفور صبابتي كما تفجّرت في نصّ الشاعر عذوبة الطبيعة. فمن تراك يا فاتنة البشر؟

أأنت حواء من عالم الأزل أم أنت عذراء من سالف الحِقب؟

أأنتِ طيف يجول بلا زمن أم أنّك ضيف يتصنع مودّتي؟

ألنت بدر ينير عوالمي.أم أنت سراب في حاضري وَ غدي؟

إن كنتِ طيفا ففي أشباحك سكني وفي تاريخك مولدي وفي ذِكراك ألف ألف تحيّتي.

أنت يا حوّاء صانعة الأمل و معشوقة البشر والموجودة في ثنايا الزّمن.

تَحيينَ في قلبي كأنّك مهجتي.وتمسين ملهمة لقلمي ودمي.وتعيشين في قرار الزّمن؟ تنصتين لِأنغام الوصال وتتحدّين بجمالك آلهة القدر.كذلك يعبد جسدك على مدى الحقب.

1995/08/15 ساقية الزيت

الوجد

لذيذة هي تلك اللّحظة الّتي واجهت فيها شعور الحبيبة و هي تبوح بأسرارها. عرفتها و أنا معها أتجاذب أطراف الحديث. فكانت ملاكا في شخصها .و من روحها انبعثت كلمات الحبّ سكرى.و إذا الشّعور يلد الشّعور و إذا الرّوح تفارق الجسد في شوق للقاء عجيب.

حبيبتي كم هو جميل ذلك المنظر الوديع للمحبّين. و كم هو غريب ذاك الوجد الذي يعتمل في نفوس العشّاق. فإذا العاشق منّا يذوب شوقا.وإذا المعشوقة بأمرأة العزيز أشبه.وكم هي جميلة صورة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شَغفها حبّا.وكم هي لذيذة صورة حبيبتي تتبعث كلماتها رقيقة عذبة المسرب فتلج كلامي لتستقرّ في أعماقي. قلت لها ذات يوم:

عزيزتي كيف لي أن أصبر على فراقك وأنت التّي ملكت فؤادا ما عرف طعم الهوى قطّ.

فقالت:و من أنا حتّى أملك فؤادك.معاذ الله أن أكون ساحرة ملكت قلبك فسلبت عقلك.

- قلت: السّاحرة لا تفعل شيئا غير تمويه.أما أنت فالسّكْر في عينيك و العشق يسري بين جنبيك.فتجدني عبدا بين يديك.فلم لا تعانقيني حتى أفنى في موج عينيك و أرقى في سماء نهديك. إبليس يسكن مقلتيك و أنا العبد الذليل أتشّهى لثم يديك.

وبأنتفاضة أجابت: عزيزي إن كنت فيك متيمة فإنّي على فِراقك عاجزة.ليتني كنت جمادا فلا أحسّ دبيب مشاعرك.ولا أرى صورة روحك. لقد أصبت برعدة الحبّ مذ تأملت وجهك.فأنسابت روحي لتفارق مكانها. واعتلت عرش إبليس تقتنص اللذة.

قلت وقد عيل صبري- يا مَلاكي- يا عذابي و فرحي أجيبي دعوة الدّاعي إذا دعاك.وانزلي من عليائك علك تراني مسكينا بالهوى ودادي.فتسمع عن قرب تأوّهات أعماقي.وهي تشدو في صخب. فلا القلب يتحرّك و لا

الرّوح تتوجّع... هو التّيه في جمالك قادني إلى الغوص في أعماقك. فخلعت عذاري متهتكا. إذ البوح بأسراري قد صيّرني بعد أن أفناني و أذابني. فيا ليتني متّ قبل هذا أو كنت نسيا منسيّا.

الوصــال

لذيذة هي معانقة لحظة العاطفة تتسرّب من قرار الوجدان لتجوب مختلف الأحاسيس معبّرة عن أسمى مراتب الحبّ.

و ما إن تجود العاطفة بلذيذ المشاعر حتى تغدو الذّات البشرية في أبهى حللها مضمّخة بعطر الحبّ و نسيم الأماني ورقّة اللّذة. هي لحظة تتناغم مع نشيد العاطفة يسري في الكيان.فلا تقف له وتيرة و لا تنعدم لديه وسيلة. بل إنّ عاطفة الإنسان تفيض عن حدود الذّات لتخترق بحار العوالم في شتّى الأماكن لا حدّ لتناهيها و لا بعد لتدانيها. هي لحظة انعتاق بل تحرّر من قيود الزّمان وأسر المكان.و في دروب المستحيل تعانق الذّات أحلامها فتقف تناشد الطيور وتغازل الطبيعة و تناجي الجبال و تعانق الأحلام في نشيد يسكر الطبيعة بسحرها وينعش الكائنات بجميل شذاها. و تعلو الأنوار و تتلألأ من فيض الأستار حجب لا ليل فيها ولا نهار. تتعرّى كثبان الرّمال و أقنعة الحرمان لتبدو للناظرين في مسحة الجمال و إشراقة البهاء، لا غبار و لا ستار، و لا انغلاق. بل تحرّر و انعتاق

و فيض. فلا معيد لرقصها. و تمرحِ فلا يداني مرحها. تفيض العاطفة و تسري سحبا في فضاء رحب تعلوه الغيوم تجود بالأمطار فلا يرتوي الجسد الضمآن و لا تحيا الروح بعد الموت، فلا الأمطار تحيي العاطفة و لا الروح تجدّد الحياة. بل هو الوصال فوق الكلّ في عرشه تفيض سحائب بركاته و ترسل على المحبّ برد اليقين و جلال الحضور، فتنتعش العاطفة و تنتشي في لحظة لا تبدو إلاّ لتختفي و لا تبقى إلاّ لتنتفي. و لا تحيا إلاّ لتموت. وصال الرّوح رقيق رقة الهوى، لذيذ لذّة المدام عزيز حريص على الفناء من الكمال. فلا دوام لطوله و لا بقاء لصرحه. و ما البقاء إلاّ للوجدان يحيا في أرض أينعت و حان قطاف ثمرتها. وَ أضحى رسم الحبّ في أركانها يتلألأ أنوارا وينجلي أسرارا. تفيض عند ذلك العاطفة. و تتعانق و شوق الوصال في لحظة تسكت فيها الأصوات وتتحرّك فيها الأحداث وَ تنجم عن سكرها ألحان عِذاب تعيد نغمة الوصال في سَالف الأزمان وعبر وتر الوجدان.

و منها فاض الهيام

كانت النفس خامدة جامدة راكدة.فأنتفضت لما رأيت شعاعا انبثق من وحي التّاريخ.و كانت الحياة رتيبة تمرّ اللّحظات فلا تشعر بمرورها.و تمضي الدّقائق فلا معنى لِمضيّها. وضلت أسّاءل:ترى ما سرّ الرّكود.أهو الاكتئاب ينتابني في لحظات الضّيق و الحرج أم هو التّأمل في الموجودات تتصارع فتتهاوى؟.و تهت في خضم الكآبة. واستسلمت لنداء المجهول.و فاضت من نفسي دموع الغربة. و انغرست في كبدي سهام اليأس. أيمكنني العيش وسط جمع لا يفقهون؟.و أنّى لي أن أتواصل مع قوم لا يفهمون معنى الحياة فهمي لها. حيرة قادت نفسي إلى التساؤل فالأستغراب فالأستسلام لِلياس القاتل.

و ما إن برزتُ إلى الحياة من جديد أتملّى بعض مظاهرها،إذا بي أقف أمام فضاء عجيب. شعرت حينذاك بأمتلاء كياني. و أحسست بتجدّد جسدي بعد الموت. وعرفت ميلاد الحياة بعد فناء الجسد.

هناك أيقنت أنني وسط الجنان أرفل في سماء الفكر. و أتعشق نسمات الوصال تهبّ من فم عشق الحياة و تمرّس بآفاتها. هناك رأيت جمال الفن.و استعدت حضور الهيام.و منها تجلت للضمآن أنهار عذاب.و استيقضت في الفؤاد شعلة الحياة بعد أن خبا نيّرها. هي المرأة تصنع بالكلام سحر الأحلام ،و تنمّي بالحوار عاطفة الجمال. وتحيي بالإحساس نسمة الحياة.ومنها يفيض الهيام. و بها تصاغ الأوهام وتتفتق الأفهام لتشرب " ماء الملام". هي المرأة مرآة الحياة و رؤيا الفنان و رؤى تتجدّد بتجدّد الأزمان. هي المرأة رهان الوجود تبعث في القلب أحلام المنشود وتميّز بعقلها بين المجهول و المعلوم. هي المرأة فلسفة الحياة لأنّها منبع الحياة و صانعة الأوهام في زمن البدايات في عالم الأرض و السّمٰوات. تظلّ الأنثى رفيقة الزّمان و عشيقة الكون و أنشودة الغرام. فهل بعد الهيام تتجدّد ريشة الإلهام لتصوغ بالفن أطياف الأنثى. فتجني ثمرها الذّاني.

محاورة الرّوح

تهت في خضِّم الكائنات- و عبثت بيَ الأقدار فمزقتني أو كادت.

و متى كان القدر يبالي بالإنسان؟ أليس هو المتسبّب في صيحة الثكلى.فأنين القدرِ لا يقرّ له قرار لأنّه يمنّح من معين العظمة و لا يبالي بالعتمة.فكم هي غريبة سيرة القدر فِي الوجود.و أغرب منها سلوك الإنسان اللاّهي الممزّق بين الأين والأنين،بين الجرح الدّفين و بين جنبات الحزن الكبير.

- قلت للرّوح و هي المفارقة: ما الذي أسكنك هذا الوجود وأنت الطّاهرة النّقيّة الفاضلة النّقية إذ لم تمسّها يد بأذية؟ أجابت : أنا المفارقة المتعالية رغم انغراسي في الكينونة.وما كانت قصّة الخلق لتؤلمني.وما كانت الجزيمة البشرية لتدنّسني.بل أنا فوق الكلّ و بالكلّ و رغم الكلّ في عوالم لا تحدّ و لا تعدّ.و في بحار لا تنفد و لا تزول.فأنا

الرّوح في علوّها.وأنا الرّوح في جوهرها.و أنا الرّوح في تباشيرها.و أنا الرّوح في عودها و بدئها.و أنا الرّوح في الجسد بعيدة في قربها غريبة في ألفتها متمنّعة في وصالها لاهية في حبها.

قلت: أعبث أنت أم ما السّر لنصبح معا أنا من أهوى و من أهوى أنا؟

قالت: أما أنت فللطين معادك.و منه خلقك.و به عيشك.فلاّ تثريب عليك ما دمت بالمادّة لصيقا.أمّا أنا فالوجود بحري والكواكب مضجعي والأنوار معدني والإله منشئي. أليس الإله روحا لطيفة خفيفة لا ترى و لكنّه يرى. فأنا الرّوح الإله في عظمتي.و إرادتي في صمتي واقتداري. أنا الرّوح شتّان ما بيني و بينك في العلا.فمحال أن نلتقي بل الفراق قدرنا و الصّراع مصيرنا.

أنشودة السّعادة

لذيذة هي لحظات الانعتاق من أسر الوجود. وألذّ منها العيش في أحضان حبيبة تهبك نسمات السّعادة و تدسّ في قلبك رَونق الأمل و بهاء الصّفاء. إنّها تجربتي في الحياة مذ أزمعتُ الرّحيل إلى عالم اللّذة لأرفل في نعماء السّعادة الرّوحية التي كثيرا ما تغنّى بها العشّاق فأجادوا. دفعني حبّي للحياة إلى اقتناص بعض محاسنها و مباهجها. فإذا بي أهوي من علياء التّقى إلى جهنّم اللّذة باغيا طريق الوصال. أنعم به من طريق ! لن أنسى تلك اللّحظة بين أحضان الحبيبة أتوسّد جسدها و هو يطفح حيويّة و إشراقا و أسمع عذوبة كلماتها تشدو نشيدا يسكر الضّمآن لذّة و نعيما. إنّها حبيبة القلب بلغ حبّها الشّغاف مذ كلفت بها و جدا: أتراني أخادع نفسي و قد أذعنت لنداء الذّات و هي تروم تحرّرا من قيدها. أم تراني صريع الغواني بينهنّ متيّم؟ إنّها الحيرة قد زالت ما إن رأيت وجه الحبيبة يبتسم لقلبي الضّمآن. فإذا بها تصيّرني خلقا جديدا و إذا بالنّسيم

يسري في مهجتي كأنّه المسك قد كسا الوجود بريحه الطيّب. مذ عرفتها والحياة قد تغيّر مذاقها فأستساغ شرابها. هي العشيقة بين أحضانها أتلوّى فإذا رأيتها التهبت و إذا مسّت يدي يدها اشتعلت.و كلّما رقصت معها اتّسعت الدّنيا في ناظريّ فوقفت مشدودا إلى جلالها فحسنها الفتّان. فلاَ العقل شِغيل و لاَ الفؤاد فاعل. أهي عروس البحر قد انتشلت المحبّ من قاعه العميق ليرى ما لذّ و طاب من الألحان. إنّه لحن الحبّ يسكر العاشق و قد أراد الخلاص والنّجاة من دنيا الفناء.بل هو لحن القلب يدمدم بالكائنات فيصيّرها بعد جفائها وصالا .أو قل هو لحن الرّوح وقد صَفا طريقها فأرسل على المحبّين بردا و سلاما.وازدادوا به قربا و وئاما. إنّها اللّذة و قد أخذت بمجامع القلوب فصّيرت المحبّ في عالم الجنان يرفل في أحضان الكون. أليست الحبيبة بلسما للجراح كالماء للنّار؟ عشقتها وقد صَيّرتني عبدا في الهوى ذليلا.وقد لذّ لي في الحبّ ذليّ وأضحى تمريغي في الثّرى عذبا شهيا. ما أصعب الهوى إذا ولج قلب محبّ رهيف الإحساس رقيق الشّعور فإذ به يصرعه قتيلا كما العشّاق دماؤهم دوما مباحة.

سحر الطّبيعة

في الطّبيعة تتراءى لك الدّنيا في امتدادها وعنفوانها و في جمالها الدائم.

في الطبيعة تشرق الدّنيا بنور الضّياء. و تموج الكائنات في بحار الأنوار المتلألئة.

في الطبيعة تعانقُ شوق الأحلام. و تخلق جمال الآمال في نشوة عارمة و لذّة أزلية.

في الطبيعة تتجدّد الكائنات. و تنمو الموجودات وتتدفّق مشاعرها في اضطرام و لوعة لذيذة.

في الطبيعة تسيل عبرات الأرض. و تنهمر قطرات السّماء فيخضرّ النّبات و يكسى حللا من الجمال السّاحر.

في الطبيعة روعة المخلوقات تنمو في حرّية وطلاقة. و نسمة الشاديات تترنّم في أجواء لا تزول و لا تمّحي. في الطبيعة ألف جزيرة أمل و ألف قطرة حبّ

وألف نسمة وصال تتجدّد بتجدّد الهواء و تتبدّل بتبدّل النّسيم.وفي الطبيعة كنوز المحبّة تجود بها على المحبين. و دروب الوصال تتجوّل على العاشقين ومسالك الأحلام تتراءى للهائمين في النّشوة و الغرام.

فيا أيّها الذين آمنوا بسحر الطّبيعة اسجدوا للجمال تحيّة إخلاص.و فرّوا إلى الوصال قبل أن تجفّ المشاعر. و آهرعوا إلى الصّلاة شوقا و اتحادا يزول فيه الأين والبين. و يا أيّها الذين آمنوا بطبيعة الجمال لا تترددوا في ملاقاة الكمال.واستجيبوا لنداء الآمال تغنموا بمعانقة الجلال في درب المآل. و يا أيّها الذين آمنوا بجدوى الفناء في عوالم البهاء استبقوا طريقة الخلاص.وجدّوا في طلب الموت توهب لكم مَسرّات الحياة.فتولدوا من جديد في رحاب الجنان. وَ اللّبيب من استبق الخيرات قبل فوات الأوان.فآغتنم عمره في لذةّ الخلود قبل أن يقع أسيرا في سجن الجمود.

و أشرقت الأرض بنور ربّها

كلّما تلوت هذه الآية سرت في مهجتي قداسة عجيبة. لعلّ مبعثها لفظ جزل وصورة حبلى بالضّياء و معنًى تأسّس على النّور و الإشراق.

إنّ الأرض بٱتّساعها و امتدادها تدلّ على عظمة صانعها.فقد أشرقت في الوجود ضياء.و تلألأت بين الكائنات سحرا وهّاجا.فالأرض تحمل الخلق على ظهرها. فمنها يقتاتون و بها يعيشون و إليها يرجعون.إنّها هبة إلهية تشرق حقّا كلّما هبّت عليها رحمة السّماء بغيثها النّافع.

أليس المطر رحمة السّماء تلامس جسد الأرض فيخصب نبتها و يزهر وردها و يحيا نسيمها؟

لقد تأمّلت الغيث ينزل من عالم السّماء فوجدته قطرات عذبة المذاق رقيقة ليّنة.كلّما نزلت قطرة على

الأرض طربت الآذان لمسمعها. ورقت القلوب لهمسها. ورنّت العيون لرؤيتها و قال الشّعر في وصفها:

الغيث أنـــوار و قطر مشـــرق
خير عميق فضله متدفِـــــــــــقُ
ينساب من بحر السّماء غزارة
بالنّور يبرق بالسعادة ينطـــــقُ
حتّى إذا غسل التّراب بعطـــره
أيقنت أنْ النّبت زهر مـــــــورقُ
تلك الفيافي قد غـــدت مخضّرة
بهوائهـــــا بعبيرها تتألــــــــقُ
قدْ زَانهـــا غيث السّماء بزينـــة
كالورد يعبث بالنّفوس فيعلـــــقُ
فالغيث عرس بالخصوبـــة منذر
وَ الأرض تحيى للوصال تعشّـــقُ
وَ وليد ذاك العُرس زهر فــائح
ترنو إليه نفوسنا تستنشـــــــقُ
في الغيث أسرار لعقل حـــاذق
في الغيث أرزاق و عيش مشـــرقَ

عهدي الأول بصحراء الجنوب

رمتني الأقدار في أحضان الجنوب أدرّس لغة العرب بعد أن اندثر أهلها الأول. وهي لحظة من وجودي اقتلعتها من عنف التّاريخ لأغدو في خضمّ الحياة مطلّعا متمرّسا كاشفا خبايا الأمور. و ما عساني أفعل و الواجب يدعوني إلى مزيد الانسجام فالأندماج. و لكنّها الذات تستجيب لقدرها و قد وهبها من الحظّ نصيب.فأحر بها أن تتشوّف لمستقبل يلوّح تباشيره حينا بعد حين. وهي الذات ظمأى إلى أن يمتلأ الكيان و يتحدّ بالتاريخ. وهي الذات تطمح إلى الوصال بالمستحيل في خبايا الوجود تتنفّس دموع الحياة و تشرب من ماء المدام.وهو الشّراب ما إن ضمّخ الوجود بأسره حتّى سكرت الموجودات في مجاهل غيبه.فإذا الحضور غيب و الغيب شهادة. لعلّها لحظة التجلّي تستحيل عند معانقة الوجود فعلا في التّاريخ لا يمّحي.بل إنّ حضورنا في الوجود لهو التّاريخ ذاته. تلك

هي عصارة فكر تمرّس بفنّ القراءة.ثمّ قادته الحياة إلى آفاق ممتدّة.فإذا الوجود يتراءى ممتدا إلى اللاّتناهي في عمق النّهاية. الصّحراء مجال رحب فسيح تعانق أحلام الذات و تنتشي فيها العاطفة.إذ ترتاد معالم صنعت طيّعة للتّحرر و الانعتاق.وهي الفضاء الرّحب للحبّ يتحرّر من أسر التّاريخ.فيلتحم بمكان تناهى عمقه في القرار.و بلغ حدّه عنان السّماء لاّ حصر لكنهه و لا حدّ لفعله. وهي العاطفة تعانق الواحة بأخضرارها و جمالها الفتّان.وكأنّها الحسناء ضمخت بالحنّاء. فالواحة رمز المرأة الولود. في معقل الصّحراء حيث تجود بأجمل ما لديها من محاسن و مباهج.فيغدو الوجود في اخضرار لايزول. أليس تقديس النّخلة إشعارا بالعظمة؟ و ما كانت حالها لتكون لولا فعلها في الحضارة. امتدّت عبر مجاهل السّنين لترتاد قداسة الحضور و نفاسة المنبت.فإذا العهد يتجدّد والماضي يتحوّل و العمر يصير إلى مفتاح قلّما يكتشف.

عهدي بالصّحراء جديد.و عمّتنا النّخلة ترفرف علما يزيّن السّماء بأخضرارها وقامتها.تمتدّ عبر الحضارة فتعلن

صمودا و تحدّيا. و بتجذّرها في عمق الأعماق تتجلى نغمة الماضي لتعاود لحظة الحاضر في تزاوج مع المستقبل الهَارب. وهو زواج عبر الكائنات قد يثمر ثمرا لذيذا.فيزيح غبار اليأس و قتامة المشهد في تاريخ الحضارة.

و الصّحراء عمق في أغوار الأعماق و طريق من طرق الذات .تنعم لرؤية حدودها لتصنع في قلبك عاطفة لا تحدّ. فإذا الحدّ و هم و الوهم حقيقة تستبطن نفسك لتكتشف سرّ المنشود من حاضر الموجود. و لاَ يعي حقيقة الفضاء إلاّ متمرّس بجليل المقام حيث تظهر له قداسة المقام وجزالة المَرام.و تحفّ به ملائكة لا تنام في صحراء لاَ تعرف المنام.

لاَ هي بالحلم ليتجسّد و لا هي باليقظة لتمارس.بل هي بين وتر الحلم واليقظة تنفرج أساريرها لتبتسم لناظريها بسمة حبّ وَ وداع.

و من حبّ الماء قال القلم

وصف لما ينتاب الفلاّح و الأرض بعد نزول المطر

في صحراء الجنوب

.

. و ما إن نزلت الأمطار غزيرة حتّى هبّ الفلاحِ فرحا مسرورا.وّ ازداد شوقه بهجة وحبورا.فٱنقلب إلى ضيعته مبهورا. بعد أن مرّت عليه سنوات الجدب دهورا. حين ذاك استشعر في نفسه قوّة وحضورا.فعرف أنّ الأرض قد كسيت حللا من الجمال بل عطورا.و تنفست بعد ضِيقها هواء موفورا.و حمدت الله على نعمته وشكرته شكورا. وهل يَفي القلم مدح المطر إذا لم تضمّخ العبارة عطرا لِتصبح في مغزاها بكرا.وترتقي في عناق الآفاق ذكرا.و تضيف إلى الجمال عذوبة بل خمرا.وهل تستطيع العبارة إيفاء الغيث شكرا.فهو المحيي نفوسا.فصيّرها بعد

اليأس أملا.وجعلها بعد الظلام نورا.و أخرجها من القيود بعد أن حلّاها بنسيم عذب يفوح عطرا.أو هو بين ذاك أجلّ أمرا. فالنّسيم لا يحيي فقط بل يضيف إلى الهوى سحرا يخلب الكيان و يسحر الألباب و يهيّج النّفوس فيكسوها زهرا.

الغرام الآفل

قدر العشاق أن يحترقوا كلما راودوا العشق و أن يصطلوا بلهب الغرام كلّما سرى نسيم الحبّ في أرواحهم. وقدري أن أكون عاشقا محترقا لأنّني سبحت بمفردي في جدول العشق.

كنت عاشقا مهيض الجناح مفردا في بحر وجدانه وحيدا في نفسه و كيانه. عاشق أنا في زمن مات فيه العشّاق. و أفل العشق. و تاهت الأرواح في عبادة أصنام المادة.

كانت الأنغام الموسيقية تدوّي في ذلك الحفل البهيج و تخترق المسامع إلى القلوب. فتستثيرها و تبثها أحلى الأهازيج. وكانت قلوب الحاضرين تعانق وتر اللّحن فتنساب معه في استغراق عجيب. أمّا الفتاة فقد تصدّرت المحفل. وشرعت تداعب أنغام الموسيقى بجسدها الغضّ الفتّان، وقامتها الممشوقة، ونظراتها السّاحرة العسجديّة.

كانت غارقة في بحر النّغم سابحة في نهر اللّحن لا تأبه للحاضرين و لا تلتفت إلى أنظار الجالسين. و كانت حركاتها تغازل الموسيقى فتعانقها في لحظة العشق.و كان وجهها الصّبوح يفيض سحرا. أمّا عيناها فتنطيق بشرا وَ البسمة الزّاهية على محيّاها لا تغيب ولا تأفل.

و ظلّت طوال الحفل تراقص النغم في رقّة مدهشة شدّت نظري و لفتت انتباهي و ألهبت مكامني.

- عجيب أمرها و غريبة هذه الفتاة.

- من تُراها تكون؟

- أيوجد في عهدنا من يعيش في غيبوبة الفنّ كأنّه مترّهِّب في الدّير. وأرهقتني أسئلة الرّوح.وزاودتني مرارا وعاودتني ما إن وطأت الفراش واضطجعت للنوّم.

و لبثت ليتلي حائرا أسائل نفسي.

هرعت إلى فراشي و قد جفاني النّوم .فوقفت أمام النافذة.فإذا النّجوم تضيء الكون.و إذا السكون يخيّم على البسيطة و النّاس نيام غافلون.

ونام كلّ من في الدار، و ظللت وحيدا أرقب الفضاء المتنائي و أناجي روحي المعذّبة.

فأردّد: أتراه العشق تسلل إلى قلبي أم تراه الإعجاب اشرأبت إليه نفسي فتداعت أحاسيسي؟.

وَ ظلّت صورة الفتاة لا تفارق مخيّلتي.

حقّا كانت جميلة للناظرين. و فتنة تستهوي المعذبين و البائسين.

فأمّا وجهها فهالة القمر في اللّيلة اللّيلاء.و أمّا قامتها فرشاقة و خفّة و عذوبة و سلاسة. و أمّا نظراتها فجاذبية قوية و بريق حاد و شدو عجيب يغنيها النّظر عن الكلام و تفقه من عينيها ما تخفيه سريرتها. و هتفت روحي قائلة:

إنّ العيون التي في طرفها حور

قتلننا ثمّ لم يحيين قتلانا

و في الصّباح نهضت مرهق الفكر شارد الذّهن.

خرجت إلى الحديقة.فكانت الشّمس مشرقة و الطيور تزقزق بألحان عذاب والأشجار قد اخضرت واكتست حلّة من الجمال القشيب و الأغصان تداعبها نسيمات الهواء فتنعش أوراقها وتجدّد نسغها.

وقفت أتملّى جمال الطبيعة السّرمديّ وسحرها الدائم. وأستنشق من الاخضرار عبير المحبّة وسلسبيل الحياة.ولم أكد أمضي في نشوتي حتّى عاودتني صورتها من جديد.

خيّل إليّ و هي ترقص في هذا الحقل الفسيح وسط هذه الحديقة الغنّاء والطيور تناجيها و تعزف بأصواتها و الفراشات ترفرف كالأعلام.و الفتاة لا تهدأ حركتها ولاتكلّ روحها.فهي ترقص رقصا موقعا متناغما. و قطع خيالي اللّذيذ نداء منبعث من فناء الدّار.كانت أمّي تصيح:

تعال يا بنيّ أريدك لغرض. هرعت إليها متظاهرا بصفاء البال و هدوء النفس .فلبّيت طلبها وبدت على وجهي علامات البّسمة.وكنت أضحك لاهيا و بداخلي أرق على أرق.

زَارني في ذلك اليوم صديق لي مضى وقت طويل لم أره.فاّستبشر برؤيتي.وجلسنا معا في غرفة الاستقبال نتجاذب ذِكريات الماضي و كان يحدّثني بصوته الشّجيّ و نظراته الواسعة.و كنت أصغي إلى حديثه.و أحرّك رأسي من حين إلى آخر.أمّا روحي فغارقة في أحلامها اللّذيذة سابحة في الخيال الآفل.

و مرّت الأيام و ازدادت حالتي قلقا.و صورة الفتاة قابعة في ذهني تبدو أمام ناظري طيفا وديعا أودّ معانقته و أرغب في محادثته وأستلذ مشاهدته و لكن...

ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرّياح بما لاَ تشتهي السّفنُ

و ذات مساء بينما كنت ذاهبا في طريقي أسير في الشّارع بخطى متزنة،إذ بي ألمح من بعيد من الناحية المقابلة طيف فتاة تحثّ الخطى و تتجه صوبي.فأرسلت نظري.و ما إن اقتربت منّي حتّى وضحت في ناظريّ.

و كانت الواقعة مذهلة.

إنّه الطيف الجميل الذي طالما تراءى لي في الحلم ينتصب أمامي كائنا حيّا روحا و جسدا.

حيّيتها تحية وجدانية تفوح أريجا. ذكّرتها بالموعد الذّي جمعنا في ذلك الحفل. أخبرتها عن نفسي بسرعة مُدهشة. لم أدَع لها فرصة للحديث. وسمعت مقالتي. وشعرت بآرتياح.و همست في أذنيّ: أدعوك إلى كأس شاي فأنت طريف.

و لبّيت دعوتها. و أنا من فيض الفرح مفتون. وعُجنا على المقهى.كان المكان نظيفا وكان مأوى يؤمّه الرّجال والنّساء.فجلسنا و بدأت النشوة تعتلجّ بداخلي.وفكّ عقال لِساني.وانطلقت في الحديث كنهر تدفقت مياهه

بغزارة. و كانت تنصت إلى حديثي في خشوع و العجب يملأ طلعتها. فتبتسم من حين إلى آخر بسمة رقيقة عذبة وتحرّك شفتيها فتخال الكلمة من فيها ثمرا جنيا:

و قالت: أتصدّق. هذه أوّل مرة في حياتي أرى مثلك. إنّك تحمل في نفسك روائع. أنت رائع حقا. كلامك همس شعريّ في كياني. فراقتني. سعيدة أنا والله أنا سعيدة.

و قاطعتها مبتسما:

" أتذكرين كم علق خيالك في ذهني؟

أتحسبين أنّني غفلت عنك لحظة مذ شاهدتك ليلتها و أنت تجيدين من الحركة أفانين؟

أتدري كم سهرت اللّيالي على وقع الأحلام أسترجع من الزّمن لحظات مرّت كطيف خيال؟. كنت طوال تلك المدّة المنصرمة منشغلا بصورتك أسائل نفسي وأغازل رُوحي مستفسرا عسَاني أفهم ما بنفسي.

ها إنّني الآن أجدك أمامي في هذا المكان الجميل و في هذا اليوم المشرق.

و لكم كانت الصّدفة صانعة للعجيب.فربّ صدفة خير من ألف ميعاد.

و استمتعنا في تلك اللّحظات.ثم ودّعتها على أمل لقائها ثانية.

و دام اتصالي بها أسبوعا كاملا فلا يكاد النّهار ينقضي و الليل يرخي سدوله و الظلام يخيّم بأجنحته على القرية حتّى أخرج إلى السّوق حيث غرفة الهاتف.فألجها فرحا.وأدير الأرقام بنهم.حتى إذا وقع صوتها في أذنيّ تنفست الصّعداء واستبشرت. و رجتني مرارا أن أصدّق كلامها و أن أثق في مشاعرها نحوي.و لم أكن لأمرها عصيا.و خلت أنّ الفتاة كون عاطفي جميل بحره الرقة و قافيته الغرام وحقيقته الصدّق و الأمان.

و هكذا استرسلت نفسي سابحة في مشاعرها اللّذيذة. وذات يوم قلت في قرارة نفسي: كيف أتركها و قد سارّتني

بعذب الكلام وخاطبتني بجميل الأوصاف ورسمتني مثالا.
لا بدّ أن أصارحها بما يعتلج في داخلي من شغف.

و تصوّرت مشهد الاعتراف و أنا أقف أمامها، و أقدم على البوح بما تكتّم في وجداني منذ أيام خلت.

و عند الغروب اتجهت كعادتي صوب الهاتف فوجدته معطّبا، و حزّ في نفسي أن أقف عاجزا عن الاتّصال بها. فقرّرت الذّهاب إلى أحد الجيران. و ما إن وصلت حتّى حيّيته، و رجوته بلطف أن يسمح لي بمكالمة. و رحّب الجار بقدومي. و هاله تردّدي فقال: الهاتف على ذمتكم فلا تتردّد. نحن جيران و الجار قد أوصى عليه الرّسول. فلتتفضل.

و دخلت منزل الجار و الشّوق يحدوني و البهجة تغمر كياني و البسمة تتسلل من بين شفتيّ. و بسرعة جنونية هتفت فوجدتها ترقب مكالمتي و قد تملكها خوف وساورها قلق. فقالت: لقد خشيت ألاّ تكلّمني. خشيت أن يكون حديثك معي سرابا. فأجبتها: أيعقل هذا الكلام لقد

منعتني عطب الهاتف في السّوق عن مكالمتك. هذا كل ما في الأمر.

و فجأة تنهّدت.و تبدّل قلقها فرحا و غبطة.و زال ما ران على قلبها من ظنون.

فقالت:" لقد حدّثت أمّي عنك و عن شعورك اللّطيف تجاهي لأنّني لا أخفيها شيئا. هكذا اعتدت و المرء ممّا تعوّدا.

فقاطعتها: إنّني صادق في كلّ كلمة نطقت بها. لقد أعجبت بملامحك. وبهرتني حركاتك. و منذ ذلك اللّقاء تملكني شعور حاد لم أعرفه من قبل.فقرّرت أن أصارحك بنبل محبّتي لأنّك تستحقّين مشاعري الخالصة و ودادي النقيّ.

و هلّلت فرحا:أحقّا تحبّني- يا لَسعادتي. أكاد من الفرح أطير سأخبر والدتي.

ثم ودّعتها بعد أن عرجت بروحها في سعادة عجيبة. و شكرت جاري على عظيم صنعه و كرمه.و خرجت من منزله أتمتم. ربّ صدفة خير من ألف ميعاد.

و بتّ ليلتي كأنّني مولود جديد. و زال ما علق بنفسي من تعب طوال اليوم. وتبدّد ما غشي قلبي من قلق و حيرة. و استسلمت لنوم عميق.

و بينما أنا سابح في طيب أحلامي خيّل إليّ فيما يرى النائم أنّني أطير في الجوّ بجناحين كبيرين. و فجأة ارتطم جناحي الأيمن بصخرة.فوقعت على الأرض.

فإذا بأمّي تهرع إليّ : ما بك يا ولدي. أتشكو ألما. أأنت مريض؟ لا بدّ أن أستدعي الطبيب. وجهك مصفرّ شاحب. و ناولتني كوبا من الماء. و هدأت من روعها قائلا: لست مريضا يا أمّي.كلّ ما في الأمر أنني استيقظت مذعورا بعد أن رأيت في منامي حلما مزعجا ارتعدت له فرائصي.

فاجابت برقة:خير إن شاء الله يا ولدي. لا بدّ أن تعب اليوم جعلك تشعر بإرهاق. حافظ على صحتك. و لم تمض ساعة حتّى انبلج عمود الصّبح.و دبّت الحياة في البيت.و اخترقت أشعّة الشمس الذهبيّة النافذة معلنة فجرا جديدا.

و قرَرت في ذلك المساء أن أصارح أمّي بالفتاة التّي أعجبتني و ملكت شغاف قلبي. و بعد محاورة طويلة تمكّنت من إقناعها و حان اليوم الموعود.

و كان اليوم الموعود. استيقظت باكرا.و فتحت ذراعيّ.و اتجهت صوب السّماء في سعادة عارمة.

ها أنّني الآن قد لامست فجر يوم سعيد لطالما حلمت به.

ها أنّني الآن قد عانقت طيفا من خيال الخبيبة. وتتالت السّاعات.و أسفر عمود الصّبح.فإذا الرّيح ترسل دويّا قويّا ينزل على قلبي بردا و سلاما و يبعث فيّ عشقا فيّاضا بل هياما.

و مضيت في سبيلي كالطّائر الغرّيد يحلّق في سماء الوجود. و مررت بالنّاس. فوددت لو حدّثتهم طويلا عن المحبّة الصّادقة و الوداد ينبعث من رحم الوجدان كزهر الرّبيع.

و فاضت مشاعري غبطة. فكادت أن تأتي على الأخضر و اليابس لولا نداء خفيّ في داخلي هدّأ من فرط رَوعي.

و حانت السّاعة فإذا هي السّاعة الثالثة مساء. و اقترب موعد الرّحيل إلى خيمة السّعادة و قبلة العشق. و توافد الجمع من خيرة الأهل و قد ارتدوا ما طاب لهم من الثّياب الزاهية و تزيّنوا بمباهج الزّينة و تعطّروا بعطر المحبّة. ففاح منهم أُرج النّسيم. و داعبهم موعد اللقاء. ففرحوا لفرحي و طربوا بأهازيج الحبّ.

و ما إن اكتمل الجمع حتى انطلقوا مسرعين كلمح البرق صوب خيمة الحبيبة يطوون الأرض طيّا. فإذا السّيارات ترسل ألحانا متتالية كأنها تنزل من علياء السّماء.

ضيقا على الأرض المعطاء. فتخال سرعتها كالدّم في شرايين القلب.و قطعت المسافات.

و اخترقت الثنايا.و وصل الجمع حيث الحبيبة في خيمة السّعادة تترقبني في شوق. و هرعت النّسوة زرافات فأرسلن الزّغاريد بأعلى حناجرهنّ و هتفن فرحا بأعلى أصواتهن.

و برز حينها وجه المحبّ في بياضه الناصع و طلعته البهيّة و جماله الوضّاح و نظراته الزائغة و قد علته دهشة الفرح كما علت سقراط دهشة التفلسف.

وَ ظللت ردحا من الزّمن مشدودا بنظري إلى ذلك المشهد.و قد تصدّرت فيه الحبيبة ترتدي ثوبا فضفاضا ساطع البياض. لقد سحرتني و هي تتمايل في مشيها. وها هي تتحرّك في هدوء و روعة و جلال لتدنو منّي فلا أصدّق ما أرى.

وردّدت في نفسي: لقد تجمّلت فوق جمالها فصارت فوق محلّ الشمس بعد أن كانت شمسا.و إذا النّساء حولها

كواكب يحجبها شعاع الشمس و لمعانها. حقا كانت في منظر يشعّ بريقا و يلمع وهجا يختطف سحره الأبصار و يعلق أريجه بالقلوب. فلو رأيت القوم وقد ثبّتوا أنظارهم في وجه الحبيبة يسبّحون بجمالها ويعشقون ثغرها الباسم في وداعة و لطف.

كانت بسمتها عسلا تتلذّذ به القرائح وتهيج له المشاعر، و تصطبغ به الأحاسيس في عذوبة لا تنتهي. و قبّلت حينها خدّ الحبيبة المورّد. فإذا اللؤلؤ من الجبين. تنبعث نفحاتها لتصعد إلى السّماء فتعرج إلى الآفاق زَهرا و طيبا.

كنّا طائرين يبهران فيعجزان.

و جلسنا في مكان مخصوص، و تبادلنا أنغام التحيّة في همس ينمّ عن شوق دفين.

و اشرأبت إلينا الأنظار. و حيّانا الحاضرون بابتسامات رقيقة.

و لكم سعدت الحبيبة و هي تصغي لهمسي كأنّه سحر يأخذ قلبها فيعلق بروحها.

و قد تغلغلت المشاعر في ذلك المكان الموعود. و سطعت أنفاس زكيّة تناجي ربّها و تشكره أنْ جمّع الشّمل و قرّب الأحبّة معلنة بداية عهد جديد بين عاشقين تعانقا روحا و وجدانا بعد أن سبحا في أنهار الخلود و سقيا من كوثر الوجود حبّا زلالا لا ينضب معينه و لا يجفّ نبعه.و لم أستطع صبرا و أنّى لي ذلك؟

و أنا العاشق الولهان يغترف من حبيبته أنغامه فيصوغ منها ألحانه. فأنتصبت في ذلك المجلس منشدا مترنّما أغازل حبيبتي بأروع الأشعار و ألطف العبارة و أجزل الأسلوب و أنصع الصّور و أحلى النشيد. فإذا العبارة كالماء يجري و العطر يسري و النّسيم يهبّ.

إنّها الكلمات تزيّن بدفئها قلوب الحاضرين. فتبعث فيهم رقّة و شدوا. فإذا الكلّ يستعذب النّغم و يستلطف فنّ الكلام من صانع الغرام.فأعزز به مشهدا تَحار في وصفه

العقول.يبعث في القلب روحا وثّابة،فيخلق الكيان و ينحت الإنسان حتّى لكأنّه مولد يحياه العاشق بملء كيانه.

إنّه تأصّل الذات و هي تبحث عن نصفها المفارق.

فإذا التّداني يحلّ محلّ التّجافي.و إذا التماهي يزرع في حقل الزّمان. و إذا النّفس تنال مناها بأغلى الأماني.فأين أنتم منّي معشر النّاس و الخلاّن؟

إنّ الغرام هـــــــــــو الحياة فمت به

صبّا فحقّك أن تموت و تعــــــــذرا

قل للذين تقدّمــــــوا قبــــلي و من

بعدي و من أضحى لأشجاني يرى

عنّي خذوا و بي اقتدوا و لي اسمعوا

و تحدّثوا بصبابتي بين الــــوَرَى

وتقدّرون فتضحك الأقدار.

و ما كانت السّعادة لتدوم.و ما كانت البهجة لتكتمل.إن هي إلاّ لحظات اهتاجت فيها المشاعر.ثمّ تبدّدت أحلام العاشق.

و لم تمض من لحظات اللقاء سوى بضعة أيام حتّى انقلبت الفتاة على عقبيها.و كان ما لم يكن متوقعا.

كنت أحلم فإذا بي أستفيق على نداء الهجر و عذاب الجفاء. و كانت الواقعة أليمة في نفسي شديدة على روحي.

في طرفة عين انقلب الحبّ إلى كره.و أضحى العشق نفورا و الوصال جفاء.

فكّرت مليّا في سبب مقنع يعيد ما بيننا من وصال فلم أقدر. و صُمّت الآذان عن نداء روحي.و تحجّرت المشاعر فهي كالحِجارة أو أشدّ قسوة.

فكّرت فلم أجن من تفكيري سوى الحيرة و الأرق.

كيف صيغت النّفس البشرية.و أنّى لقلب مفعم بالحبّ أن يغدو شعلة من الحِقد والكره؟

تناقض عجيب هي الطبيعة البشرية .

تناقض عجيب هي العاطفة الآدمية .

و تهت في دوّامة الحيرة.و شخص بصري.و ذي نفسي تتجرّع مرارة الذكرى كلّما راودها طيف الحنين.و ذي روحي تتأجّج نارا كلما راودت عقلي نفحات الحبّ الآفل. و كلّما تأمّلت ما خطته يدِ فتاتي طيلة عهد الوصال ردّد صوت بداخلي آه ثمّ آه.

يَصرعن ذا اللّب حتّى لا حَـراك بـــــه

و هنّ أضعفَ خلـقَ الله إنســانَـا .

فقلت:

عَبثــا أردّد قد هــــــويت و قــد هويت ؟

عبثا أنـــــــاجــي فالشقــاوة قد جنيـت

و مرارة الذّكــرى دمـــــــــوع تحترق

و مرارة الماضي شهيق يختنــــــــــق

ماذا و ماذا فالمصير إلـــى تــــــراب

و الغائب الآتي يفتّش في دمـــــــــــي

عن همسة تمسي سؤالا في فمـــــــــي

قد سربلتي ظلمة الليل البهيـــــــــــم

قد قيّدتني وحشة الغاب العظيـــــــــم

فأنا أردّد أنّة مثل العويـــــــــــــــل

مثل الغريق بروحه و بلا مثيـــــــــــل

عبثا أردّد قد هويت و قد هويـــــــــــت

عبثا أناجـــــــــي فالشقاوة قد جنيـــــــت

كالطائر المكسور أسعـــى في الظـــــــلام

كالميّت المقبور ذكري في الأنـــــــــــام

يا أمّة من قبل كان لها رجـــــــــــــال

كانت و كانت في الزّمـــــــــان كما الجبال

أين الرّجال وَ أين أرباب الغـــــــــــرام؟

أين الفراش وَ أين قمريّ السّـــــــــلام؟

بل أين أنت قصيدة الماضي التليـــــــــد؟

أين الشعور وَ أين آهات الشّهيـــــــــد؟

أين السّماء بروعة مثل الرّيـــــــاض؟

أين الوجود بنغمة النّاي الشجـــــــــيّ؟

أين الورودِ بعطرها أين العهـــــــــــود؟

ماض تبددّ في الزّمان بلا حـــــــــدود

ماض تلاَشى كالرّمال على السّهــــــول

عبثا أُردّد قد هويت و قد هـــــــــويت

عبثا أناجي فالشقاوة قد جَنيْـــــــــت

ملاحظة:

أحرزت قصة الغرام الأفل علـــى الجـــائزة الأولـــى فـــي القصّة ملتقي الأدبـــاء الشـــبان بســـيدي علـــوان 1999 .

الفهرس

I - القسم الأول: في اللّغة

II - القسم الثاني: في الوجود:

- و منها فاض الهيام
- مُحاورة الرّوح
- أنشودة السّعادة
- سحر الطّبيعة
- و أشرقت الأرض بنور ربّها
- عهدي الأوّل في صحراء الجنوب
- و مِنْ حبّ الماء قال القلم
- الغرام الآفل .

مطبعة: Copy Shop

العنوان: حي الرياض سوسة 4023
الجمهورية التونسية

طبع هذا الكتاب على نفقة المؤلف

الطبعة الأولى مارس 2008.

ISBN : 978-9973-0-0160-3

عبد الحفيظ الزّواري



من مواليد 1968 بمعتمدية ساقية الزيت من ولاية صفاقس

أحرز على شهادة الباكالوريا سنة 1989

تخرج من دار المعلمين العليا بسوسة سنة 1993 بشهادة الأستاذية في اللغة و الآداب العربية

ارتقى سنة 1999 إلى رتبة أستاذ أول

من إصداراته:

إعترافات عاشق مجموعة شعرية سنة 2000

قراءات في النص الأدبي قديمه و حديثه سنة 2000

حدّ العقل و وظائفه في الإمتاع و المؤانسة للتوحيدي سنة 2001

تأمّلات في أدب المسعدي السدّ بين رمزية العبارة و انفتاح التّأويل سنة 2003

الطاهر صفر مفكرا سنة 2004

النّصّ السّردي التّونسي الحديث إطلالة على إبداعات تونسية سنة

عبير الوجدان مجموعة شعرية سنة 2007

الثمن 6.000 د.ت ISBN: 978-9973-0-0160-3 *Copy Shop - Cité Riadh Sousse*